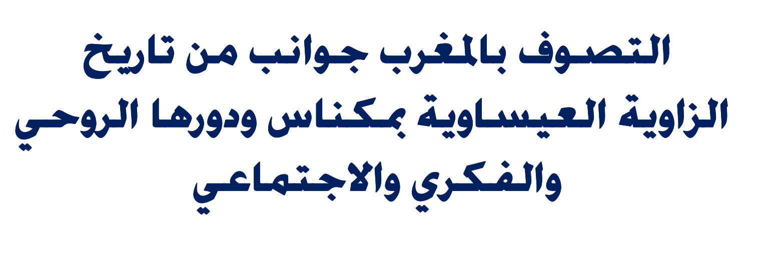






التصوف بالمغرب جوانب من تاريخ الزاوية العيساوية بمكناس ودورها الروحي والفكري والاجتماعي



عبد العزيز العموري
باحث في تاريخ المغرب
- المملكة المغربية

تقديم :

يكتسي البحث في تاريخ زاوية عريقة من زوايا القرن 10ه/16م،أهمية كبرى على عدة مستويات، أبرزها كونه يكشف النقاب عن وضعيتها في النسيج الصوفي العام ،ودورها في تفعيل المجال الذي تنتمي إليه، وعلاقاتها بمكونات المجتمع .فقد تجلى حضور الزاوية العيساوية في مختلف نواحي الحياة ،روحيا واجتماعيا وسياسيا عبر مشاركتها في التخفيف من وطأة الندرة والكفاف في مطلع العصر الحديث ، والانخراط في تقرير مصير البلاد ، إلى جانب باقي مكونات الحركة الطرقية من مجاذيب وملامتية ، وشيوخ الزوايا، ولو بنصيب،وتوفير الملاذات الآمنة للناس في وقت كان الخوف سيدا ،ومن المجهول على وجه التحديد...ورغم كل هذا ظل عيساوة مغيبون من دائرة التأليف التاريخي ، وهو موقع لا يتوافق البتة مع تلك الأدوار التي كانت تضطلع بها الزاوية والخدمات التي قامت بها لمختلف الفئات الاجتماعية .

وإذا كان البحث في عيساوة مهما بغرض إماطة اللثام ،عن أحد مكونات الحركة الصوفية بالمغرب ،فإن ما يثير الانتباه هو غياب شبه مطلق لدراسات تناولت هذه الفئة من المجتمع بالتحليل والتتبع ،إن في فترة التأسيس ،أو الفترات الموالية، فباستثناء دراسة أحد موظفي الإدارة الاستعمارية بمكناس[1] المعنونة ب : **Essai sur la confrérie des Aissaouas** ، وباستثناء دراسة[2] **les aissaouas à tlemcen** لا نعثر سوى على مقالات متناثرة هنا وهناك ، وبعض الإشارات عن عيساوة جاءت ضمن دراسات عامة عن الحركة الطرقية بالجزائر،أنجزها موظفو الإدارة الفرنسية بهذا القطر، يأتي على رأسها **Marabout et khouan**[3] و[4] **les confréries religieuses Musulmanes.**

والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها، بعد استعراض هذه النماذج، هو غياب دراسة خاصة عن عيساوة خلال الفترة المعينة بالبحث،تأخذ بعين الاعتبار التصوف العيساوي نشاطا وفلسفة، وتغيب الخلفية السياسية الثاوية وراء الدراسات المجهرية للمجتمع المغربي بكافة فئاته ،ناهيك عن أن الحضور العيساوي في الإنتاج المعرفي الأجنبي اقتصر على الفترة المعاصرة . ومع أنها تقع خارج الدائرة الزمنية لبحثنا، فأهميتها تنبع من تسليط الضوء على بعض جوانب الموضوع.

والواقع أن هذه الندرة في أخبار عيساوة ، تشترك فيها المصادر التاريخية المغربية ، والعيساويون أنفسهم، ولكن لكل جانب دوافعه ، فأصحاب الزاوية ، كان ينظر إلى ممارساتهم وأعمالهم بنوع من عدم الرضى والقبول في طيلة تاريخها، أما عن تصوفهم،فقد اعتبر من منتقديه خارج دائرة السنة ، ولا يمت بصلة البتة لما أسسه الشيخ محمد بن عيسى ، كصوفي شريف ورع وتقي ، من أسس وقواعد وأسس شكلت عماد البناء الطرقي للزاوية . ولذلك استبعدوا من الاهتمام والمتابعة . أما عن العيساويين فلم يهتموا بتدوين أخبارهم وحضورهم في التاريخ ،بسبب افتقاد زاويتهم لمؤرخين على شاكلة زوايا أخرى ، وكل ما وصلنا من آثارهم ، لا يتعدى بعض الرسائل المناقبية الخاصة بشيخ الطريقة وكراماته [5]، التي تلخص في مجملها ، بصيغة مناقبية طبيعة أدوار الزاوية في محيطها المحلي.

وقد مهد بعض الباحثين في السنين الأخيرة للتغلب على هذا النقص في المادة المصدرية الخاصة بعيساوة ، بأبحاث في الظاهرة الأوليائية المغربية [6]، تطرقت في جانب منها إلى هذه الزاوية وامتداداتها المجالية ، وبعض شيوخها البارزين الذين سجل لهم التاريخ حضورا متميزا[7] ، وواكبتها على ما يبدو دراسات عامة عن الحياة الصوفية بمكناس[8].

تأسيس الزاوية:

- <u>مؤسس الزاوية</u> :

اشتهر الشيخ محمد بن عيسى ، شيخ الزاوية العيساوية في الأوساط الشعبية بالشيخ الكامل ، لكمال صلاحه وثبوت ولايته ، كما أقر بذلك شيوخ عصره بمدينة مكناسة ، التي اتخذها مقرا لزاويته ، ومنها انطلق إشعاع طريقته ليعم كافة مناطق المغرب .

فمن هو هذا الشيخ الذي نجد اسمه يتردد في أكثر من مصدر ؟

- <u>الأصل والنسب</u> :

يصطدم الباحث في شخصية الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن عيسى[9] ، بإشكال يتعلق بأصله ونسبه ، وهو الموضوع الذي كثيرا ما أحدث اضطرابا في التآليف المنقبية التي تصدت لترجمته. فابن عسكر في دوحته يقول : " **أبو عبد الله محمد بن عيسى الكبير الفهدي السفياني الأصل ثـــم المختاري**" [10] ، وعند صاحب النور الشامل : "**أصله من عرب سوس من غير شك في ذلك، ولا ريب عند جمهور الناس، لكن اختلفت عباراتهم، فمنهم من يقول أنه سملالي , وسملالة قبيلة من قبائل جزولة، ومنهم من يقول أنه سباعي من أولاد أبي السباع كما ذكر، وهو الصحيح** " [11].

وهذا الاختلاف والتباين انعكس حتى على المصادر التي استقت جل معلوماتها من " دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر " رغم أن مؤلفه ابن عسكر لم يقدم تفاصيل كثيرة عن نشأة الشيخ إلا أنه اعتبر من أول المصادر التي تطرقت إلى هذه الشخصية الصوفية ولتجاوز هذا التضارب الذي سقط فيه مترجموه ، قمنا بقراءة مستفيضة لكل المتون قصد استنباط معلومات تقربنا من تحديد تاريخ ولادة الشيخ التي كانت على الأرجح سنة 872هـ/ 1467م [12] ، بأحد مضارب : مختار الحسناوية ، وكان والده عيسى بن عامر قد حل بهذه المنطقة، وتزوج منهم مريم المختارية [13] ، ولكنه تربى بأحد بطون أولاد محمد الحسناويين وهم سحيم، وهؤلاء أصبحوا فيما بعد أكثر أتباعه وأشد الناس

تفانيا في خدمته ومحبته، وقد قال في حقهم الشيخ هو نفسه: " **أهل سحيم أعز علي من أولاد صلبي** " [14] .
يتضح إذن نسبته للمختاريين إنما هي نسبة مصاهرة فقط لكونه نزل عندهم أول الأمر ، ومنذ ذلك الحين أصبح يُنسب للمحل الذي نزل فيه، فكثر الاضطراب بين ثنايا كتب التراجم فيما يتعلق بأصله، سواء عند ابن عسكر في " دوحته " أو الفاسي في " ابتهاجه " وغيرهما، والسبب لا محالة هو انعدام وجود كتاب مخصوص بترجمته، أو على بعض تقاييد عند من يعتد بهم بين أصحابه، والتي كان من الممكن أن تزيح هذا الغموض في المصادر المنقبية.

وبناء على ما ورد عند "المهدي الغزال " يتضح أن أجداد الشيخ، استقروا في الأقاليم السوسية، وتحديدا بمنطقة جزولة، وهي من المعلومات الهامة والإضافية الواردة في ترجمته، ونقصد بأصله السوسي انتماء أجداده الأولين إلى أولاد أبي السباع ذوو النسب الشريف [15] .

ويعتبر مؤسس الزاوية العيساوية أحد أفراد ذريتهم كما يتضح ذلك من عمود النسب الوارد في النور الشامل : " **وهو محمد بن عيسى بن عامر بن عمر ابن عمرو بن حريز بن محروز ابن عبد المومن بن عيسى المكنى بأبي السباع، ابن إبراهيم بن هلال بن محمد بن يوسف بن أبي زيد بن رحمون بن زكريا، بن محمد بن عبد المجيد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء** "وهذا النسب تضمنته وثيقة معلقة بضريحه بمكناس.

إلا أن هذا العمود يثير عدة إشكالات :

أولا : من جهة الانتساب إلى البيت الإدريسي عبر أحمد بن إدريس كما ورد عند الغزال في **نوره،** وبالمقابل يؤكد صاحب الدفاع وقطع النزاع في الصفحة **(52)** ، على انحدار السباعيين من محمد بن إدريس، خلافا لما جاء في الكتب التي اطلع عليها ولم يذكرها ، منها النور الشامل الذي رفع نسبه إلى أحمد بن إدريس الأصغر.

ثانيا : نجد صاحب " **الدرر البهية في الجواهر النبوية**" لم يشر لأجداد عيساوة أثناء حديثه عن ذرية أحمد بن إدريس الأصغر.

ثالثا : لا نجد ذكرا لشخصية عامر الواردة في العمود ، بل اسما آخر له نفس اللقب أي : " أبو السباع " وهو عيسى إضافة إلى عدد الأسماء الواردة في أعمدة النسب المختلفة، فبينما يقدم صاحب الدفاع **28** اسما رابطة بين عامر ومحمد ابن إدريس الأصغر، نجد أن المهدي الغزال أورد **17** اسما بين عيسى المكنى بأبي السباع وأحمد بن إدريس.

لا نملك أي سبب واضح لتفسير هذا الاختلاف والتضارب ، كل ما نستطيع الإشارة إليه هو شهادة عبد العظيم الأزموري بشأن انتساب الشيخ محمد بن عيسى إلى السباعيين، بالرغم أننا لا نقف على المصدر الذي تبنى منه هذه الشهادة، وبالرغم مـن أنه أيضا لا يقدم رأيا حاسما بهذا الصدد حيث يقول:" **وأما في قبيلة بني حسن، فرقة يقولون لها مختار، وفيهم دوار أولاد فهد، فهم شرفاء وأصلهم من أولاد أبي السباع، وقال قائل أن سيدي محمد بن عيسى منهم** " [16] ، ولعل أولاد فهد قدموا إلى الغرب مع قبيلة بني أحسن بالإضافة إلى ما ورد في شهادة صاحب "الأنس والإمتاع " بصدد ذرية أولاد مخلوف، منهم أولاد عيسى حيث يشير إلى أهم أعلامهم ،الشيخ محمد بن عيسى[17] .

ومهما يكن فالحيثيات التي أفضت إلى هذا الاضطراب في كتب التراجم ،غير واضحة , وهو ما صعب من مأموريتنا في اعتماد خيط ناظم وواضح نتبعه,حتى نستطيع الوقوف على النسب الشريف لشيخ الطريقة العيساوية، وعلى اختلاف المعلومات الواردة في أعمدة النسب التي ساقتها، فإن المصادر

المعتمدة تنتهي به إلى إدريس الأزهر، مما يعني أن الشيخ شريف النسب من الفرع الحسني، ودليلنا على ذلك الظهير الشريف الذي خص به السلطان محمد بن عبد الله أحفاد محمد بن عيسى، أورده ابن زيدان في " **إتحافه** " [18] ، حيث يقول في إحدى فقراته:

" كتابنا هذا أيد الله أمره، وخلد في الصالحات طيه ونشره، يستقر بيد حملته الشرفاء أولاد الولي الصالح والبرهان الواضح سيدي محمد بن عيسى نفعنا الله به، إننا أسدلنا عليهم أردية التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام والمحاشات عما تطالب به العوَّام، فلا يسأم جانبهم ولا يضام، ولا يدخلهم أذى ولا اهتضام، وأسقطنا عنهم كل وظيف قوي كان أو ضعيف ، وجعلنا زكاتهم وأعشارهم يدفعونها للضعفاء من أقاربهم، وعليهم بتقوى الله في ذلك ومراقبته في السر والعلانية، رعيا لنسبتهم الطاهرة، واشتغالهم بما يعنيهم، فالواقف على كتابنا الشريف من عمالنا وولاة أمرنا العمل بمقتضاه ولا يتعداه ومن رام حول حماهم أو قاربهم بشيء فإذ نعاقبه أشد العقوبة صدر بذلك أمرنا المعتز بالله والسلام في فاتح رجب الفرد الحرام عام 1174هـ ".

- <u>النشأة</u> :

نشأ الشيخ محمد بن عيسى، في بيئة دينية محضة خاصة على المستوى العائلي حتى الوسط الذي عاش فيه اتسم بالصلاح والنفوذ الروحي، ويمكن الإشارة فقط إلى أن جد السباعيين الذين ينتمي إليهم الشيخ كان شيخا صوفيا له خلوته، كما شُهد له بكراماته المتعددة، فضلا عن كونه ذا قدم راسخ وسند عال في طريق القوم.

لكن تتبع مسار الشيخ الكامل ، تعترضه بعض الصعوبات، تتعلق بنوعية الأخبار الواردة بشأنه والتي يمتزج فيها الخرافي ، والأسطوري بالعقلاني، لذلك كان لا بد من إعادة قراءة المضان التي نتوفر عليها لبلوغ هدفنا، فالمصادر التي ترجمت له لم تشر قط إلى تعلمه ولا إلى مستواه الثقافي في مرحلة الصبا، لكننا نفترض أن المدة التي قضاها بين أحضان المختاريين ,عندما كان صغيرا ,ثم شابا ,كانت فرصة لتعلم المبادئ المعرفية الأولى, إن سماعا , أو احتكاكا بفقهاء القبيلة , وصلحائها، سيما ونحن نعلم بوجود أضرحة بالمنطقة ,وأحواش من حجر لأولياء ,عاشوا في تلك الفترة [19]، وكانوا قدوة في نشر العلم، واعتقد فيهم الناس الولاية والصلاح حيث ظهرت عليه علامات الذكاء والفطنة ، حسبما ما يحكى عن فترة تعلمه الأولى .

النجابة التي اتسم بها الشاب محمد بن عيسى دفعت بوالده إلى اصطحابه إلى جامعة القرويين بفاس، التي كانت أبوابها مشرعة لكل راغب في الاستماع وتلقي المعرفة والعلوم، في نفس الآن كانت تزخر بالقراء والمحدثين والفقهاء ، ويكفي أنها كانت تتوفر على أكثر من 140 كرسي ، منها كراسي الوعــظ والإرشاد ، وكراسي العلم خاصة بالطلاب [20] .

والملاحظ أن رحلته إلى فاس اكتنفها بعض الغموض، ذلك أن المتون التاريخية التي وقفت على سيرة الشيخ ,لم تجُد علينا بأسماء شيوخه بالقرويين، ولا بتاريخ الرحلة، ولا بالمدة التي قضاها بالمدينة العلمية، إلا أننا نرجح أنها – أي الرحلة – كانت في فترة شبابه.

وبما أن أغلب المعلومات المتعلقة بهذه الرحلة، مستقاة من تآليف محققة تصدت لترجمته كالدوحة والممتع ... فقد جاءت غامضة، إذ لم تشر لا لتاريخها ولا لسن الشيخ إبان القيام بها ، وأمام هذا التقصير والإهمال، لم نجد بدا من اعتماد منطق الاستنتاج، وعلى هذا الأساس فقد رجحنا أن رحلته تلك تمت في فترة شبابه،كما مر بنا ، لأنها الفترة الملائمة بالنسبة لأي شخص راغب في التنقل من أجل طلب العلم والمعرفة، وعن مقامه بالقرويين يؤكد مترجموه أنه حفظ القرآن في مدة زمنية وجيزة، لما لا،

وهذا الشاب كان منقطعا كليا للدرس والتحصيل، فنهم من معارف شتى : العربية وآدابها ، الفقه، التفسير، مثلما تمكن من العلوم النقلية والعقلية[21] ، والدارس لما خلفه الشيخ من أحزاب وأوراد يقف على سعة ثقافته، وتنوع رصيده المعرفي، كما سنرى.

الاستنتاج الثاني يتعلق بشيوخه بفاس ، إذ في غالب ظننا – ونفترض أنهم كثيرون بحكم شهرة الجامعة وكثرة المترددين عليها من علماء وفقهاء – أنه تتلمذ على يد شيخ الجماعة أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن الغازي العثماني المكناسي ، حيث كان له كرسي خاص بتدريس التاريخ والسير، فضلا عن العلوم الشرعية واللغوية[22] ، وعلى الفقيه أبي العباس أحمد بن عيسى الماواسي البطيوئي[23]، مفتي فاس والذي نبغ في التعديل ، والشيخ أحمد بن علي الزقاق التُّجَيْبِي يكنى أبا العباس الفقيه المتكلم ، صاحب التآليف العديدة : منظومة في القواعد وبعض الرسالة والمدونة، ومختصر خليل ، والشيخ أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914ه) نزيل فاس، نزلها سنة 874هـ ، وحامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة ومفتيها صاحب " المعيار المعرب عن فتاوي إفريقية والمغرب " في **12** مجلدا وهو موسوعة في النوازل، وكتاب "الفائق " وغير ذلك .

ومما لا شك فيه أيضا أن الشيخ محمد بن عيسى لازم علماء آخرين، كأحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي الشهير بالدَّقون، وأحمد بن محمد الحباك، الفقيه ، النحوي (ت 938هـ) ، وغيرهم ممن غصت بهم القرويين مستفيدا من معارفهم الغزيرة، كالتفسير ، القراءات، التوحيد، الحديث، ناهيك عن الاطلاع عن الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم والترمذي والموطأ، بالإضافة إلى التصوف ، **" وجد الشيخ في ذلك إلى أن فتح الله عليه في أقرب زمان "**[24].

ولا صحة لما قاله البعض[25] من تزامن وجود الشيخ أبي العباس أحمد بن أحمد البرنسي الشهير بزروق ، صاحب الطريقة الزروقية [26] بفاس، أثناء وجود الشيخ الكامل بها، إذ لم يكن بالمغرب أصلا ذلك أنه خرج إلى تلمسان سنة 870هـ، ولم يكن شيخنا قد ولد بعد، نعم عاد إلى فاس سنة 879هـ، وخرج منها في حدود 883هـ، ولم يرجع قط إليها، إذ استقر به المقام بليبيا حتى توفي بها سنة 899هـ، وحتى وإن كان هذا اللقاء قد تم لكان الشيخ زروق قد أشار إليه في تآليفه ، إذ كما نعلم أرخ لحياته في أواخر عمره، وكتب عمن لقيه من العلماء والصلحاء[27] .

وتأسيسا على ما سبق ، يبدو أن صلة الشيخ محمد بن عيسى بعلماء الظاهر ، والتي سبقت لقاءه برجال التصوف ، كانت قوية ومتينة , أهلته لاكتساب كم غزير، ومتنوع من معارف وعلوم الوقت، وتلك شروط ضرورية لكل شخص راغب في التصدي للتربية وهو ما تم بالفعل بمكناسة الزيتون ، بعد عودته من رحلته العلمية من فاس، حيث غدا فيها فقيها عالما، وكان محله بالمسجد الأعظم، وكذلك بمسجد درب الفتيان، وبعدئذ **:" خرج الشيخ إلى البحث عمن يدله على الله "**[28] ، أي البحث عن شيخ للتربية الصوفية.

– شيوخ التربية الصوفية :

من شروط الصوفية بالنسبة لأي مريد يريد أن يرتقي في سلم المشيخة، أن يتلقى الأدبيات الصوفية، وبالأخص معرفة تعاليم الطرق الصوفية، من المشايخ الذين اكتسبوا أهلية مجتمعية وصوفية، وبمقتضى ذلك – الأهلية - يحق لهم التلقين، لذلك أجمع المتصوفة على أن من :" لا شيخ له فالشيطان شيخه، ومن لم يمت تحت بيعة شيخ مات في ترهات الضلال " [29] ، وقد شكل اقتداء المريدين لشيوخهم ، محورا أساسيا ضمن جهاز التصوف، إذ بواسطته حافظ هذا الجهاز على وجوده واستمراريته، ولم يقتصر الأمر، على مسألة الاقتداء وحسب، بل نجد أن المتصوفة ألحوا على التبعية المطلقة للشيوخ،

فالمريد يكون تابعا له على طريقته يلتزم بطاعته، وتوقيره ... وهذه التبعية عُبر عنها بعدة تعابير منهـــا :" **فزمام نفس المريد بيد شيخه** "[30]، إلى غير ذلك من التعابير ذات نفس الدلالة .على هذا الأساس حرص الشيخ محمد بن عيسى على النهل من مدرسة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، عبر تلاميذته الذين أخذ عنهم الطريقة بالعهد والصحبة ، وهذا يعني أنه سعى إلى اكتساب المشروعية الصوفية من نبعها الأصلي.

وعن علاقة الشيخ محمد بن عيسى بشيوخه تستوقفنا ملاحظة رئيسية تتعلق بعدم معرفة المدة التي قضاها مع كل واحد منهم، وإن كنا نرجح أنها تمت في آخر أيامهم الشيوخ الثلاثة – وتفسيرنا الوحيد لهذا الاستنتاج أنه بعد قضائه لمدة " **الخدمة** "[31] كما تقتضي بذلك الأعراف الصوفية وأخذ" **الإذن** "[32] بالانصراف ، وتخبرنا المصادر بوفاة الشيوخ الثلاثة بعد اتصاله بهم، مع افتراضنا أن تلك المدة اختلفت من شيخ لآخر حسب معطيات كل مرحلة في رحلته الصوفية، وعن شيوخه في التربية نجد:

أ – **أحمد الحارثي** [33]:

بحكم تواجد الشيخ الكامل بقبيلة سفيان أثناء فترة شبابه، قد يكون قد سمع عن الشيخ أحمد بن عمر الحارثي المكنى بأبي العباس ، شيخ السفيانين،الذي كان من أهم الأطر الصوفية في مدرسة الجزولي، وحظي بمكانة مرموقة بين أهالي مكناس ونواحيها، بالنظر لصلاحه وتقواه ,فقد كان من :" **الأكابر الذين لهم التصريف الرباني ، صحب الشيخ القطب أبا محمد عبد الله بن سليمان الجزولي**" [34] حتى اشتهر في عصره باسم " الواصل الموصل" [35] ، وابن عسكر لما ترجم في دوحته، أشار إلى كثرة من تتلمذ على يديه :" **وهدى الله به أمة عظيمة ومشايخ الصوفية يعظمونه غاية التعظيم**" [36] .

اتصل به محمد بن عيسى بمدينة مكناس، ولازمه وأخذ :" **عنـه الطريق بالعهد والصحبة، قرأ عليه كتب القوم، إلى أن فتح الله عليه بالولاية**" [37] .

ومع ذلك، فمشيخته لم تكتمل بعد، ولم يؤهل بعد لاستقبال المريدين لذلك أوصاه الشيخ الحارثي بعد أن قرب أجله التوجه إلى أحد شيوخ الجزولية المشهورين بمراكش، وهو عبد العزيز التباع قائلا له :

" يا بني قد فتح الله عليك بالولاية، وبقي لك شيء من الفتح، وقد قرب أجلي، فعليك يا بني بالذهاب بعد وفاتي إلى صاحب الوقت بمدينة مراكش حرسها الله، وأخذ عن أخي سيدي عبد العزيز التباع فهو صاحب الوقت في هذا الزمان، وخليفة شيخنا القطب الجزولي، والوارث لمقامه وهو يكمل لك " **الفتح**" [38] .

وقد كانت وفاة الشيخ الحارثي سنة 908هـ/ 1504م، ودفن بمكناس وبنيت عليه قبة وقبره بها إلى الآن مزارة مهمة من مزارات المدينة، اعترافا من أهلها بقيمته ومكانته بين أولياء زمانه.

ب –**عبد العزيز التباع** [39] :

بناء على وصية الشيخ الحارثي لمريده محمد بن عيسى ، واعتبارا لما تفرضه مقومات النسق الصوفي، من ضرورة انضباط المريد لشيخه، وتنفيذه لوصيته، وحتى يتأتى له استكمال لبنات مشروعه الصوفي، تدفعه في ذلك رغبته الملحة لنيل المشيخة الصوفية، وتأسيسا على ذلك قصد الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع، المكنى "أبو فارس " وسمي " **بالحرار** " لاشتغاله بصناعة الحرير، كان قد لازم الشيخ السُّهيلي بعد وفاة الجزولي ببيته بأحواز فاس مدة ، لا ندري كم تبلغ، يقوم خلالها بمختلف أعباء المنزل من رعي ، سقي، حطب... وحتى الأعمال ذات الطبيعة النسوية.

وقد كان جالسا بزاويته حين التقاه شيخنا لأول مرة وهكذا بعد مجالسته، خاطبه التباع قائلا :
" اسمع يا بني إن أخي الشيخ سيدي أحمد الحارثي قد صفى درهمك، ولم يطبعه ذلك، وغير المطبوع في السوق لا يجوز، فها أنا قد طبعته لك " [40]، و**" طبع الدرهم "** لا يعني سوى أنه أكسبه صفة المشيخة الصوفية، وأصبح بمقدوره التصدر لتربية المريدين، وقد صاحبه لمدة شهر ملقنا إياه الذكر، وكل مقتضيات الطريقة الجزولية من أحزاب وأوراد. هذا فضلا عن منحه **" سر العهد "** ذو والدلالة الصوفية مخاطبا إياه **:" هو عهد الله لا عهدي ولا يعطى إلا من صدر إلى صدر"** [41] .
ثم استأذنه في قراءة كتاب :" دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار " للجزولي، لكن لم يجد عنده مواده، إذ أن أبا فارس التباع أخبره أن الشيخ محمد السهلي الملقب بالصُّغَيِّر، هو المخصوص به وقتئذ، لذلك كان عليه بعد الانتهاء من زيارة التباع الاتصال به .
وبعد أن زار ضريح محمد بن سليمان الجزولي، ودع الشيخ الكامل شيخه، وانتهت مدة إقامته بمراكش بعد أن لازمه مدة شهر كامل يخدمه ليل نهار، وقد كانت وفاة الشيخ الحرار سنة 914هـ/ 1509م[42] ، وقبره هناك مزارة عظيمة، وقد بنى عليه السلطان محمد بن عبد الله العلوي ، قبة عظيمة تقديرا لمكانته العلمية والصوفية[43] ، وبوفاته تكون خلافة الطريقة الجزولية قد آلت إلى شيخ الزاوية العيساوية .

- الشيخ السهيلي [44]

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم العمري (بسكون الميم) ، من أولاد عمرو من عرب السْهول بالغرب ، عرف بالسُّهيلي أو السَّهلي نسبة إلى أخواله السهول، هـــو أكبر تلامذة الشيخ الجزولي، وصفه صاحب " الممتع " " من أكابر الأولياء المحققين، وأحد الأفراد الواصلين وذوي الهمم العليا من المقربين" [45]، فانتفع به كثيرون وتخرج على يده رجال وهكذ ، فأثناء عودة شيخنا من مراكش، في اتجاه مدينته مكناس، زار الشيخ السهيلي بناءا على وصية الشيخ التباع المراكشي، في زاويته الكائنة
بضواحي مدينة فاس، وبالضبط بمنطقة خندق الزيتون[46] ، بجوار واد اللبن.
وعلى يده جدد أخذ العهد والطريقة ، أما الجديد الذي سيضيفه الشيخ محمد بن عيسى لمشواره الصوفي فيتمثل في استكمال مراحل تلقين الجزولية إذ سيتطلب منه كتاب "دلائل الخيرات " كما سبقت الإشارة لذلك، وهو من جملة الأوراد الواجب تلقينها لأتباعه حال عودته، تبعا لانتمائه الطرقي للجزولية، وهذه النسخة معروفة بالنسخة السُّهيلية.
وبعد تسليم السهيلي الكتاب لمريده، يكون قد أخلى ذمته، واستكمل دوره حيال من سيحمل مشعل الجزولية قائلا :" اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك ورسلك وأنبياءك وأولياءك أني قد بلغت الأمانة لصاحبها ". و" بإذن " منه قفل شيخنا راجعا إلى مكناس ، وكانت وفاة ولي واد اللبن سنة 918هـ/ 1513م، عن سن عالية [47] ، وبالنظر لمكانة هذا الولي في سلك الجزولية، قام الشيخ الغزواني [48] ، وهو أحد صلحاء المائة العاشرة ، اعترافا بمجهوداته في نشر تعاليم الجزولي بأن بنى على قبره قبة عالية[49] ، وظل منذ ذلك العهد مزارة عظيمة تفد إليها الوفود من كل ناحية وخاصة العيساويين منهم.
ميزة هذا اللقاء تتجلى في كونه شمل أحد أعمدة الطريقة الجزولية في مغرب القرن 10 هـ/ 16م، والذي يعد الرجل الثاني في سلك الطريقة، وهو أمر يستفيد منه ولا شك الشيخ الكامل في تأسيسه لزاويته بالحاضرة الإسماعلية – مكناس. فهل لذلك أثر على خريطة الأولياء بهذه المدينة العريقة؟

– <u>الزاوية العيساوية بمكناس</u> :

قبل تتبع مختلف خطوات هذه الزاوية الجديدة في الوسط المكناسي نرى من الضروري الإشارة إلى

بعض العناصر المهمة، وهي بقدر ما تكشف عن مدى مساهمتها في تمهيد الطريق لهذا الشيخ لتأسيس زاويته بقدر ما تقدم إجابة حول إذا ما كانت هذه الزاوية قد نالت مكانة مرموقة أو العكس، وسط خريطة التصوف الوطنية والمحلية.

فأولا: نجد النسب الشريف لمحمد بن عيسى الذي أكسبه حظوة اجتماعية متميزة في محيطه ، وسهل عليه مأموريته في وسط صوفي يعج بالمنافسات العديدة , والتي يسعى كل طرف فيه الى الاستفادة مـــن الإمكانيات الأساسية التي يتيحهـــا هذا العنصر – الشرف [50] – ، وفي هذا الجانب كل السبل مشروعة حتى وإن وصل حده إنكار المشيخة عن بعضهم البعض.

وقد كانت استفادة الشيخ المؤسس من نسبه كبيرة أضاف إليها ما اكتسبه من مؤهلات معرفية في شتى الحقول ، وتلك أهم خصائص الولاية المطلوبة في أي شيخ .

ثانيا :أنه ولقدسية عمله نسج الناس حوله حكايات عدة تتعلق بقدومه إلى مكناس كلها تندرج في سياق التأكيد على ولايته وأحقيته في التصدر للتربية ، وتفيد أن ساكنة المدينة استقبلته بحذر شديد، وورد صداها في بعض التآليف المنقبية كالدوحة، التي جاء فيها :" سمعنا (ابن عسكر) قـــــال الشيخ " بصري" ، ثلاثة مشايخ لم يكن لهم نظير بالمغرب، ابن عيسى، أبو محمد الغزواني، أبو محمد الهبطي "[51]، وبطبيعة الحال فقد جاء هذا الاعتراف بعد التأكد من ولاية شيخ عيساوة على لسان أحد شيوخ المدينة وفقهائها البارزين وهو محمد بن عبد الرحمان بن بصري المكناسي الملقب الولهاسي المكناسي المعروف بسيدي بصري[52] ، هذا الأخير رضخ لضغط السكان واتجه قاصدا محمد بن عيسى "لامتحانه " ، وكما كان متوقعا كانت النتيجة قاطعة، ووضعت حدا لكل الشكوك التي يمكن أن تحوم حول هذه الشخصية الجديدة في الفضاء الصوفي المكناسي، وهذا ما نستشفه من قول الشيخ البصري وهو يصيح بالشوارع :**" هذا هو ضامن مكناس، هذا هو الشيخ الكامل "** ومن هنا أتى لقبه الذي سيعرف به طيلة حياته و بعد مماته[53] .

بعد هذه الواقعة أصبح لمحمد بن عيسى شعبية فائقة في وسطه إذ أن المدينة كلها بكافة فئاتها سواء علية القوم أو عامة الناس اعترفت له بهذه المكانة فلم يبق له والحالة هاته سوى الانكباب على تفعيل نهجه الصوفي , وبالطبع لن يتأتىله ذلك إلا بتأسيس زاوية , ومن خلالها ستتكون الطائفة ,شهد لها التاريخ بعلو شأنها وارتفاع مكانتها. فكيف تمت عملية التأسيس هاته ؟

اقتضت الأعراف الصوفية أن يتجه المريد بعد أن ينال قسطا من العلم، واستيعاب مقتضيات الطريقة التي اختارها وأقبل عليها، وبعد أن " يأذن" له شيخه أو شيوخه إذا كانوا كثر إلى اتخاذ زاوية في منطقة ما، كفضاء، يمكّن من الاستمرار في نشر تعاليم من أخذ عنهم الطريقة وتشكل في نفس الآن منطلقا لاستقطاب المريدين والأتباع.

وعكس ما قد يتبدى لنا، فإن عملية اختيار الموقع لم تكن أبدا اعتباطيا أو خاضعة لمزاج الشيخ المؤسس، أو تحكمها هواجس ذاتية، وبمعنى آخر،لم تكن عملية التأسيس عملية معمارية بحتة، أي إيجاد بناية ومركز لاستقرار الأتباع، ذلك أنه في النسق الصوفي بروز زاوية جديدة، يعني تجسيد الطريقة واقعيا، والانتقال بها من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي – العملي ، وما من شك أن بداية شهرة الطريقة ستفرض على مؤسسها اتخاذ عدة تدابير, لفتح زاوية له ، مثله في ذلك مثل أي شيخ صوفي أتم كل المراحل التي يتطلبها أي مشروع صوفي [54] .

بالقطع لا نستطيع الوقوف على كافة الحيثيات التي صاحبت فكرة تأسيس زاوية جديدة ،أضف إلى ذلك أنه لا يمكن الجزم بمدى وعي الشيخ محمد بن عيسى بأهمية المدينة التي اختارها ، وتبعا لذلك ما هي الأرضية التي سوف ينطلق منها هذا الشيخ لبناء طائفته ، قبل الإجابة، ننطلق من شخصية الرجل ذاته

فقد سهر أبوه على تعليمه القرآن ومبادئ علوم عصره من أصول الدين ، ثم انتقل إلى مدينة العلم والعلماء – فاس – من أجل طلب العلم حيث اتصل في رحلته بعلماء وقته وأولياء زمانه البارزين، وعندما عاد إلى مكناس حاول أن يترجم رصيده الفكري والصوفي على شكل مهام تدريسية ,و طرقية ليس في هذه المدينة وحسب ، بل في المغرب عامة ،وبالتالي فقطعه كل هذه الأشواط والمراحل كان يستهدف من ورائه بناء صرح حركة صوفية طرقية كما يراها هو وعليه فهل طريقة محمد بن عيسى في ظهورها كانت ذات مغزى اجتماعي ديني وداخلي /محلي؟

الإجابة على هذه السؤال مرتبطة بإلقاء ولو نظرة خاطفة على الأرضية الدينية والاقتصادية والاجتماعية التي انطلق منها، مع التنبيه على ضرورة العودة إلى التاريخ ولو في حدود نسبية وجزئية حتى لا نخل بالبناء المنهجي للموضوع.

وفي هذا الإطار يُتساءل عن موقع التصوف في مكناسة القديمة وكجواب على ذلك أن هذه المدينة أعلنت منذ قرون خلت (القرن 6هـ/12م) مشاركتها في حركة التصوف، وإن كانت في البداية مشاركة ضعيفة لكنها ستتطور فيما بعد وسيتجاوز إشعاعها النطاق المحلي إلى مجال أوسع بذلك بكثير .

وهكذا كان يقصدها كثير من المتصوفة المغاربة "كأبي يعزى "حيث يشير ابن غازي مـدى ارتباط هـذه الشخصية بمكناس :" ولـو لم يكن من مفاخر مدينة مكناسة إلا اشتمـال عملها على مدفن ولي الله تعالى المجمع عليه شيخ المشايخ سيدي أبي يعزى لكان كافيا" [55] ، واستوطنها عدد كبير منهم قبل فترة شيخ الزاوية العيساوية بكثير.

و سرعان ما تحولت هذه المدينة إلى مركز مهم للتصوف كما تدل على ذلك اليوم أضرحتها الكثيرة وطوائفها المتعددة خاصة إبان القرنين التاسع والعاشر الهجريين على يد أتباع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي الذين انتشروا بالمنطقة لنشر مبادئ وأسس الطريقة الجزولية والعمل على جلب الناس إليها ، أهمهم على الإطلاق أبو العباس أحمد الحارثي السفياني، و سعيد بن أبي بكر المشترائي [56] ، وعمر بن المبارك الحُصيني [57] ، وهذه الدينامية الصوفية سيتفاعل معها الشيخ الكامل بشكل كبير.

على ضوء المعطيات التي أثبتناها عن حركة التصوف بالمدينة يتبدى لنا أن اختيار الشيخ محمد بن عيسى لمكناس كان مقصودا، وذلك حتى يتأتى له استثمار إرثها التاريخي والصوفي .

وبطبيعة الحال ليس غرضنا هنا استعراض مختلف تطورات الحركة الجزولية بمكناس على المستوى الديني بقدر ما يهمنا أن نبرز على ضوئها الأرضية الصوفية التي اتكأ عليها شيخ الزاوية العيساوية في بلورة نهجه الصوفي وتشكيل طائفة هي الآن أهم مكون من مكونات الخريطة الصوفية، كما أنه وعلى ضوء مختلف عناصرها يمكننا أن نفهم وبشكل أفضل جانبا من أسباب شهرة الطريقة الصوفية العيساوية ليس بمنظار محلي ولكن على المستوى الوطني.

والراجح أن أهم عامل ساعد الشيخ على تأسيس زاويته , ودفعه إلى اختيار مكناس ، هو غياب زاوية أخرى كان من الممكن أن تنافسه في مجاله الجغرافي .

وهكذا وبعد اطمئنان ساكنة مكناسة وفقهائها وشيوخها للشيخ محمد بن عيسى شرع في مباشرة أولى مهامه، وهي التدريس وفي هذا الصدد تستوقفنا ملاحظة رئيسية وهي أن التآليف المنقبية التي تصدت لترجمته تبقى صامتة عن تقديم أية إفادات بهذا الخصوص من شأنها إضاءة هذا الجانب من حياته والذي يكتنفه الغموض ذلك أن كتاب التراجم أضفوا على حياته طابعا صوفيا محضا غير مبالين بحياته العلمية، والشيء المؤكد أننا إزاء شخصية مزدوجة تتأرجح بين العلم والتصوف.

هكذا كانت بداية البدايات بالمسجد الأعظم بمكناس [57] ، ولا زالت هذه المعلمة الدينية تحفظ له هذه المهمة التدريسية إذ تشير رخامة معلقة بالسارية الثانية من الصف الخامس المحاذية للجهة الشرقية

للمسجد والغربية من باب العدول الحالي وليس القديم كتب عليها ما نصه : " هنا كان الشيخ سيدي محمد بن عيسى يدرس العلم سنة 927 هـ " كما اتخذ مسجد درب الفتيان القريب من حي الصباغين زاوية له[58] ، وتحولت مع مرور الوقت إلى مسجد عادي لإقامة الصلوات الخمس، أما مقر سكناه فكان بزنقة حمام الجديد، وتوجد بدرب سيدي عبد الرحمان التاغي ، ولا زالت إلى الآن تعرف بدار الشيخ الكامل عند أتباعه بمكناس.

ويلاحظ أن المضان الصوفية التي شكلت أساس عدتنا المصدرية تخلو من أية إشارة تتعلق بالمواد التي درسها ، أما محاولة تسليط الأضواء على طبيعتها وأوقات تدريسها ، فتصطدم بصعوبات جمة راجعة لشح المصادر ، ومع ذلك يمكننا أن نستنتج أنها لم تخرج عن نطاق ما تعلمه، واستوعبه من معارف وعلوم ، من فقه وحديث وسير ... أثناء إقامته بجامع القرويين، فضلا عما اكتسبه في مجال التصوف من خلال ملازمته لشيوخ الطريقة الجزولية، وعلى هذا الأساس توافد عليه الناس رغبة منهم في الاستفادة من معارفه وعلومه، وقد عمل في بداية أمره على استقطاب أتباع شيخه الحارثي، وهو ما توفق فيه اعتبارا لاشتراكهما في السند والانتماء إلى الجزولية .

الثابت أن النهج الصوفي للشيخ محمد بن عيسى تضمن في جذوره بذور استمراريته ، وطبقا لذلك فقد اقتضت منه ظرفية مغرب القرن العاشر الهجري أن ينظم أتباعه بأية وسيلة لمواصلة مشروعه الصوفي، ونعتقد أن ما يفسر سرعة انتشار أفكاره آنذاك هو أن " حركته" تعتبر ذات طابع محلي متأقلم بيئيا.على الأقل في فترتها الاولى .

على ضوء الملاحظة السابقة يخيل إلينا أن فعل التأسيس ، قد تم ترسيخه في المجال – مكناس – حيث كان المنطلق زاوية درب الفتيان ، هاته الأخيرة مع مرور الوقت أصبحت غير قادرة على مسايرة تحولات محيطها الشاسع نظرا لازدياد عدد المريدين والأتباع، وهذا ما فرض على الشيخ توسيع زاويته، لما لهذا المرفق من دور كبير في تقوية الشعور بالانتماء إلى الطريقة ونهجها الصوفي . ولتحقيق غايته اشترى محل دفنه الحالي وما حوله ، وجعله زاوية[59] التي أسسها قبل وفاته بسنوات معدودة ، ودليلنا في ذلك أنه إلى حدود سنة 927 هـ حسب ما هو موضح في رخامة المسجد الأعظم كان يدرس بهذا المسجد ويستقبل زواره بزاويته الكائنة بدرب الفتيان السالف ذكره ، وما بعد هذا التاريخ سيقضيه في زاويته الجديدة بباب الجديد خارج أسوار المدينة القديمة بمكناسة .

الشيء المؤكد أنه بعد انتقاله إلى زاويته المذكورة سيتصدر لمشيخة الطريقة وتربية المريدين حيث وصل على يديه عدد كبير من الشيوخ ساهموا بشكل قوي في ضمان الاستمرارية لهذه الزاوية بعد وفاته. ينضاف إلى ذلك الآخذون عنه والذرية التي خلفها، والتي كان لها نصيب وافر في الحفاظ على هذا اللون الصوفي النابع من اجتهادات نظرية محضة لشيخ الطريقة العيساوية .

– البناء الطرقي العيساوي :

الطريقة لغة :هي السيرة، أما المعنى الصوفي ، فيقصد به المسار الذي يسنه أي شيخ لأتباعه ومريديه، بناء على عدة أسس ومواصفات فكرية، مستمدة من الطريقة الأم التي يتبناها ، وهي الطريقة الجزولية ذات الانتشار الواسع في المغرب أبان القر ن 10 / 16 م . ترى ما مدى استفادة الشيخ الكامل من هذا الأساس النظري؟

- جزولية الطريقة العيساوية :

سبق وأن رأينا من قبل، أن الشيخ محمد بن عيسى أثناء رحلته الصوفية , اتصل بمجموعة من المشايخ

,آخذا عنهم أصول التصوف ، إلا أن القاسم الذي يجمع بينهم ، انتماؤهم إلى طريقة محمد بن سليمان الجزولي، فهل لذلك علاقة بالجو الديني والروحي العام السائد آنئذ (القرن 10هـ) أم لإدراكه لأهمية السند، والراجح أن كلا العنصرين كانا وراء هذا المسلك ، من طرف الشيخ الكامل ، لما لا، ونحن نعلم أن المدخل العملي لاكتساب شرعية الانتماء إلى الحقل الطرقي هو اكتساب أسانيد صوفية معترف لها بالأولوية في عصره، والتي لم تكن سوى الأسانيد الحزولية.

وعلى هذا الأساس حرص شيخنا على النهل من هذا السند، من خلال ملازمته لتلاميذ الجزولي الذي :" تخرج على يديه مشايخ عدة وحييت به البلاد والعباد وجدد الطريقة بعد خبو أنوارها "[60] .

إن اعتماد الشيخ الكامل على شيوخ التربية الثلاثة : أحمد الحارثي، عبد العزيز التباع، السهيلي في عملية التلقين الصوفي يوضح إلى حد كبير مدى علو سنده في الطريقة الجزولية، بحكم أن هؤلاء يعدون من كبار مشايخ الطريقة منذ (أوائل القرن 10هـ/ 16م) بل ومن الرعيل الأول للجزولية ، وليس بينه وبين محمد بن سليمان الجزولي إلا واسطة واحدة.

- منهاج الشيخ في التصوف :

بعد أن تلقى الشيخ الكامل " **الإذن**" من آخر شيخ لازمه بتأسيس زاوية قصد التصدر للتربية بناء على مقتضيات النسق الصوفي ، سينتقل بعد تحقق فعل التأسيس إلى تشكيل طائفة ، أضفت على تجربته طابعا آخر لا شك أنه كان في أمس الحاجة إليه , وسط خريطة الصلاح المغربي، ويُتساءل هنا عن أشكال الشيخ التأطيرية التي انتهجها إزاء مريديه ، وقبل ذلك تستوقفنا ضرورة التعرف على بعض مميزات شخصيته الطرقية حسب ما توفره المصادر التي ترجمت له، وللإشارة فقد جاءت تلك المعلومات في الغالب الأعم مجرد تلميحات وإشارة عارضة عملنا على تركيبها وجمعها لعل وعسى معرفة أوليات هذا الجانب من حياة هذا الشيخ .

وأولى هذه العناصر , أنه على الرغم من محاولات عيساوة إظهار شيخهم كشخصية ملمة بشتى صنوف العلم، انطلاقا من مقامه بين أسوار القرويين، ومعاشرته لعلمائها، فإن المصادر التي بين أيدينا ، تكشف بما لا يدع مجالا للشك مدى غلبة الاهتمامات الصوفية المحضة على غيرها من الجوانب.

وثانيها : أن معطيات رحلته الصوفية أكسبته إمكانية ترسيم طريق خاص في الفكر الجزول ، ويعتبر ذلك نتيجة لمخاض طرقي ومزاوجة ما بين تعاليم شيوخه واجتهاداته النظرية وهو ما عرف منذئذ بالتصوف العيساوي ، وتمكنا بالاعتماد على ما بحوزتنا من تآليف من معرفة بعض خصائصه : " **امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات والمحافظة على الصلوات والصبر،... هذا إلى جانب التقوى والاستقامة"** [61] .

وتكمن أهمية هذا التصوف في تميزه بخصائص انفرد بها أو كاد عن غيره من التجارب الصوفية المغربية في القرن العاشر الهجري بما فيها تلك التي تنتمي للنسيج الصوفي الجزولي الذي تعتبر الزاوية العيساوية جزءا منه ، ومع علمنا بالسند الجزولي لطريقته فقد تميز في جزوليته بميزات خاصة حظيت لديه بالأهمية أكثر من غيرها ، بل اعتبرت عنوانا ميز زاويته ليس فقط في عهده بل حتى في الفترات اللاحقة . وتلك الأسس نجد لها صدى بين مريديه وأتباعه وأهمها دوام التصلية على النبي [62] ، وهذه الصفة كانت دائما ملازمة للذكر، وسيعتمد عليها في تربية مريديه.

كما بلغ الارتباط في هذه الطريقة بين الشيوخ وأتباعهم مستوى عاليا يعبر عنه عادة في المصادر بـ:" المحبة " وهو مفهوم كثير ما ارتبط بطوائف تشترك مع طريقة الشيخ الكامل ، مثل الطائفة القاسمية الشرقاوية[63] ، إلى درجة ارتباط عيساوة بها دون غيرها ، فقيل : " المحبة عيساوية والسنة مسناوية" [64] أي أنه إذا كان أتباع الزاوية المسناوية نسبة (لأبي عثمان أمسناو شيخ زاوية الصومعة بتادلا) اختصوا

باتباع السنة، فإن أتباع الشيخ محمد بن عيسى اختصوا " بالمحبة " وشيخهم كان: "آية في اتباع المحبة والأد ب"[65].

ونعتقد أنه في هاتين الخاصيتين تلخيصا مقتضبا لأسس هذه الطريقة وخاصة أهم جانب من جوانبها ، علاقة الشيخ المربي بالمريد السالك في الشاذلية التي ينتمي العيساويون إلى فرعها الجزولي ، وثاني إشارة في هذا الاتجاه جاءت على لسان أحد أعلام الطريقة :

المهدي الغزال في " نوره " وإن كانت متأخرة زمنيا لكنها ذات دلالة كبيرة، ما مدح به شيخ الطريقة حيث يقول : **"الصالحون كلهم غرفوا من بحر النبي والشيخ ابن عيسى غرق فيه "** [66]، وربما كان يحاول أن يؤكد على نقاء هذه النحلة على عهد مؤسسها خاصة ونحن نعلم أنه في سياق تطورها حادت عن كثير من الأسس التي انبنت عليها في بداية الأمر، وهذا ما يؤكد دعوته إلى أنها كانت خالية من أي سلوك بدعي، فالمحبة التي ورثها عيساوة عن شيخهم كانت مقرونة "بالأدب" والمقصود به في عرف الصوفية، الأدب مع الله، وتأسيسا عليه شكل هذا المفهوم قطب رحى هذه الطريقة ومنطلقها النظري.

وطبقا لذلك لعبت كل من المحبة والأدب دورا مهما ، في انتشار هذا اللون من التصوف ، والذي أصبح خاصية لصيقة بأتباع الشيخ الكامل ,في كافة أماكن تمركزهم ، وشكل عنوان اجتهادهم في المدرسة الجزولية وأساس الارتقاء في سلم مقامات التصوف بالنسبة للمريدين.

ومن المظاهر المميزة في الشخصية الطرقية "لولي مكناس" تنصيصه على أهمية اجتناب البدع حيث اعتبرها حدا فاصلا بينه وبين أي مريد يرغب في الانتماء للطائفة وفي هذا السياق تستوقفنا إحدى مقولاته:" السنة تجمعنا والبدعة تفرقنا"[67] ، والقصد من تأكيده على ذلك هو الظهور بمظهر المدافع عن صفاء السلوك الصوفي وخلوه من الابتداع إذ أنه كمتصوف لا بد وأن يكون ضد الفساد في مجالات الحياة فكريا ، اجتماعيا ... وبفضل ذلك كان لدعواته أن تكسب عطف الفئات الشعبية الذين أحاطوه بهالة من القداسة والاحترام ، وفي نفس السياق يوجه كلامه إلى منتحلي التصوف قائلا : "يريدون الياقوت بضرب الحديد، ويريدون الرجال بأعمال الجمال، ويريدون أحوال الأبرار بأعمال الفجار " [68] وفي هذا القول ما ينم على وضعية الصلاح في مغرب القرن العاشر الهجري.

- خلفاء الشيخ :

بعد وفاة الشيخ محمد بن عيسى ، سيتسلم المشيخة من بعده ابنه عيسى ، الملقب بالمهدي ، بكل ما تحمله هذه الكلمة مـــن دلالة مـــن تربية للمريدين وتسيير لشؤونها وقد تم هذا الأمر بإذن صريح من شيخ الطريقة[69] ، كما تنص على ذلك الأعراف الصوفية التي تم ترسيخها في البيئة المغربية وفي تاريخ الزوايا والطرق الصوفية .

ومما لا شك فيه أن تنصيص المصادر العيساوية على انتقال المشيخة إلى ابن شيخ الطريقة جاء لحسم مسألة تضارب الآراء واختلافها حول ذرية الشيخ الكامل، والتي قيل بشأنها الشيء الكثير، منها : - وهذا ما يهمنا - أنه لم يخلف ولدا أو لم يخلف أبناء قط ، والبعض الآخر يذهب أنه خلف ولدين : "عيسى المهدي" و"الحاج روان".

ورغم قلة المصادر التي تطرقت لهذا الجانب، فإنها ذات فائدة كبرى في مسألة حسم قضية الذرية، إذ أجمعت أنه رزق من مريم المختارية ولدا واحدا، تناسلت منه ذرية الشيخ الكامل، والمسمى عند المنالي الزبادي بعيسى المهدي[70] ، و يعتبر الحلقة الرابطة في سلسلة النسب الكاملي، وذلك بالنظر لاختلاط الحكايات وكثرتها في هذا الشأن . وقد قادتنا هذه الملاحظة إلى اعتبار حصولنا على معلومات كاملة وشاملة بصدد مشيخة الزاوية بعد رحيل مؤسسها الأول ، مهمة صعبة شيئا ما خاصة مع شح المصادر عن تقديم إفادات عن هذه الشخصية الثانية ، وبالضبط عن حياته ، موقعه ضمن خواص أصحاب أبيه،

مؤهلاته الصوفية والتسييرية، وظروف تسلمه لمشيخة والده ... إلى غير ذلك من القضايا الغامضة في مسار هذه النحلة الصوفية، لذلك سعينا لتبديد هذا الغموض بالاعتماد على النص الوحيد الذي بين أيدينا ، نص المهدي الغزال:" ... وقد فتح الله عليه بالولاية، وحصل منها الحظ الوافر، والتحق بحزب سلفه المبارك، فما ونى في ذلك، ولا قصر بمجلس لإرشاد المريدين وإفادة السالكين "... [71] ، ولما لا وهو "البحر الذي لا يجارى في المعارف والأسرار، والآية الكبرى في حل الشبهات ..."[72] .

إن تفكيك هذا النص مع الاستعانة بما يتردد في أوساط عيساوة، طبعا بتحفظ وحذر ، يتيحان لنا الخروج بالخلاصات التالية :

1 - قدرة عيسى المهدي على تسيير الطائفة، التي بلغت آنئذ شهرة فائقة، وهذه القدرة راجعة بالأساس إلى العناية التي لحقها من قبل أبيه ، الذي تعهده بالتربية مذ كان صغيرا، ولعله بذلك كان يهيئه لتحمل المسؤولية الروحية من بعده.

2 – نشوء عيسى المهدي ، وترعرعه في أسرة دينية، متتبعا لخطوات والده في نهوضه وقيامه بتدريس العلوم الدينية، أكسبه رصيدا معرفيا كبيرا، استحق به أحقيته في الإدارة الروحية للزاوية والتصدر لدروس الوعظ والإرشاد والتي درج الشيخ الكامل على تنظيمها في رحاب زاويته، سواء عندما كانت في درب الفتيان، أو عندما انتقل إلى خارج سور المدينة .

3 – تسلم المشيخة ، جاء استجابة، أولا لمقتضيات أعراف الصوفية ، وثانيا أنه بلغ حسب منطوق النص، مراتب عليا في مجال التصوف :" وقد فتح الله عليه بالولاية، وحصل منها الحظ الوافر " ، وبقدر ما تدل هذه الأوصاف على علو مقامه في عالم الولاية، فإنها تحدد المواصفات التي على ضوئها استحق قيادة الزاوية.

4 – من المفيد أن نقف عند النص قليلا، فهو يشير إلى المجالس التي كانت تعقد في الزاوية والتي يحضرها المريدون، والتي كانت استمرارا لفترة والده، والأكثر أهمية من ذلك أن النص يقيم دليلا على آلية من آليات التأطير التي انتهجها شيخ الطريقة في زاويته، وهي على كل حال لا تختلف في شيء عن ما كان يجري في باقي زوايا العصر.

يبدو إذن أن مؤهلات عيسى المهدي كانت وراء استحقاقه هذا المنصب الروحي - مسؤولية قيادة الطريقة بعد أبيه - بكل ما يتطلبه هذا الأمر من كفاءة واقتدار، خاصة وأن الزاوية بلغت شأنا كبيرا في عهد والده، ولم يكن للشيخ عيسى أن يتفوق في مهمته بالاقتدار المشار إليه لولا أنه تلقى المساعدة الكاملة من خواص أبيه المقربين الذين عاملوه معاملتهم لأبيه من قبل : "**...معظما لأهل الخصوصية ، من أصحاب أبيه، يُلاينهم، وينزلهم منازلهم، ولا يتعداهم في أمر من الأمور ...، منزلا عندهم منزلة شيخهم** "... [73] ، وبسبب العناية التي أحاطوه بها ، غدا هذا الشيخ أحد أقطاب التصوف في القرن 10هـ/ 16م، يشهد له عيساوة في مصادرهم الضنينة بمجهوداته ، في سبيل الوصول بطريقته إلى مستوى الاستجابة لمتطلبات الظرفية التاريخية التي ظهرت فيها.

هكذا نلاحظ أن الشيخ محمد بن عيسى لم يكد يرحل لملاقاة ربه حتى ظهر لأصحابه شخصية ثانية ، كانت أكثر فاعلية وتجاوبا مع ظروف الزاوية في عهدها الجديد ، والمهم من كل هذا وذاك، أنه كان من خريجي المدرسة العيساوية في مجال التصوف، ولا غرو في ذلك فقد لازمها ولازم مؤسسها مدة ليست بالهينة إلى أن تخرج منها على مقاسها حيث صارت له الزعامة في الطريقة، وصارت له بالتالي شعبية فائقة، استطاع بفضل حسن استثمارها الحفاظ على وهج الزاوية العيساوية، رغم مضايقة ومنافسة زوايا أخرى كان لها شأن كبير كالزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، والزاوية الفاسية بفاس، والحمدوشية بزرهون ... [74] ، وقد استمر هذا الوارث لسر شيخ الطريقة في مهمته الجديدة إلى أن وافته المنية على الأرجح

سنة 940هـ/ 37-1538م[75] ، ودفن في زاوية أبيه.

والسؤال الذي يتبدى لنا مشروعا ، هو حول موقع الشيخ أبي الروابن المحجوب من كل هذه التطورات وخاصة مسألة انتقال القيادة الروحية للزاوية، ومشروعية هذا التساؤل تأتي من كون هذا الشخص أخص وأقرب الأتباع للشيخ الكامل،وعليه، ألا يمكننا القول أن الأمر في الزاوية آل بعد وفاة شيخها إلى الولي الملامتي أبي الرواين ؟

وجوابنا أنه حتى ولو كان أبو مهدي عيسى أصغر منه سنا، وأن معالم تصوف أبي الرواين من " محبة" و"جذب" تنسجم مع أسس التصوف العيساوي بشكل كبير ، فإن منطق الأشياء ومنطق ظرفية مغرب القرن 10هـ، وما فرضته على الزاوية من مستلزمات إضافية إن هي أرادت الحفاظ على استمراريتها ومكانتها في المجتمع ، وبالتحديد ضرورة تواجد عقب أو نسل من ذرية الشيخ المؤسس ، هذا العنصر كان أحد أهم عناصر اكتساب المصداقية وسط الطرق، كل ذلك فرض على خواص الشيخ محمد بن عيسى الالتجاء إلى ابنه، ومنحه صلاحية تسيير الزاوية وإدارة شؤونها، أما أبو الرواين المندرج ضمن " أهل الخصوصية من أصحاب أبيه " فالراجح أنه وضع وزنه الصوفي تحت تصرف شيخ الطريقة الجديد.

وإذا كنا قد استبعدنا فرضية تحمل أبي الرواين لمسؤولية الزاوية بعد وفاة الشيخ الكامل حسبما هو مبين آنفا فإننا نعود لنرجح . واعتماد صيغة الترجيح والاحتمال مرتبط بشح المصادر العيساوية،عن إيراد المعلومات الكافية إن لم يكن غيابها المطلق وحسب علمنا فإنه عاد للعب ذلك الدور بعد وفاة عيسى المهدي ، وهذا الأخير قضى في مسؤوليته مهلة يسيرة والذي جعلنا نعود إلى هذه الفرضية أن اسمه تردد كثيرا في مصادر تلك الفترة الموسومة سياسيا بالصراع الوطاسي السعدي ، لذلك نعتقد أنه لو لم يكن في منصب حساس في هياكل هذه الزاوية لما نال كل هذا الاهتمام في المصادر.

وبناء على ما تقدم ، فما يسمون الآن " بأولاد الشيخ الكامل " ينحدرون من الولي سيدي عيسى المهدي الابن الوحيد لشيخ الطريقة، وقد انفرد أحد عيساويي القرن 18م المنالي الزبادي في كتابه :" سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية" دون غيره من المصادر الأخرى بالحديث عن هذه الذرية التي تفرعت إلى عدة فروع، واستطاع البعض منها أن ينشئ زوايا مرتبطة بالزاوية الأم خارج أرض المغرب .

لقد كان علينا أن ننتظر بداية القرن العشرين حيث ستظهر دراسة لأحد موظفي الإدارة الاستعمارية الفرنسية لتكشف لنا عن تطورات هذه الذرية وتفرعاتها، والتي نجد أنها انقسمت إلى ثلاثة فروع : الفياضيين، الجزوليينن والحارثيين، وهذه الفروع تتفاوت من حيث الأهمية في تمثيلياتها لعيساوة ، كما تختلف في أماكن استقرارها على الأقل بمكناسة ، حيث يوجد المقر الرسمي للزاوية، فبينما نجد أن الحارثيين قد خفَت دورهم ، نجد الفرعين الآخرين : الفياضين والجزوليين يجسدان التمثيلية الأكبر لعيساوة سواء داخل مكناس أو خارجها، وعلى العموم يمكن الحديث بصدد ذرية الشيخ داخل المدينة كما يلي :

1 – المنطقة القريبة من السويقة حيث درب أولاد سيدي بن عيسى، وهو درب مغلق يوجد بجوار الولي سيدي عبد الله الأمغاري.

2 – حومة الصباغين : يتواجد بها درب مقابل لدرب أجانا المحتسب الشهير على عهد السلطان الحسن الأول، ويسمى درب أولاد الشيخ الكامل، وهذه الحومة تضم على الأرجح الفرع الثاني لعيساوة أي الجزوليين

3 – حومة درب الفتيان : وبهذا الدرب توجد زاوية الشيخ الكامل الأولى قبل أن تنتقل إلى خارج أسوار

المدينة القديمة .
كما أن عملية تحديد نقاط الاستقرار والتوزيع بالمدينة، وكذا التمايزات القائمة بين ذريتهم والمتجسدة في شكل طوائف، لا تتحدد فقط من خلال الحومات الكبيرة الآنفة الذكر، بل كذلك حتى من خلال الأحياء والأزقة التي يقطنون بها، وهي على العموم تفرعات صغيرة أفضى إليها سياق الطائفة الأم وهكذا نجد :
أهل توات ، أهل دار سويقة، أهل سيدي عبد الله الكزار، أهل درب المطيري، هذا بالإضافة إلى العيساويين الذين هاجروا إلى مدن أخرى كأصيلا، العرائش، فاس، طنجة، وأسسوا بتلك المدن والبقاع زوايا لاجتماع المريدين والأتباع، أو الذين كانوا وراء تأسيس زوايا خارج المغرب كالجزائر، تونس، وليبيا.

- مكانة الشيخ في النسيج الصوفي:

- وفاة الشيخ:

توفي الشيخ الكامل،عن سن يناهز 61 سنة ،وقد تزامنت وفاته مع ارتفاع وثيرة الصراع الوطاسي السعدي، وما استتبع ذلك من اضطراب الأوضاع وانعدام الأمن، وتضارب الأفكار، وتصاعد التهديد الإيبيري المتمركز في السواحل، وإذا علمنا أن مؤلفي التراجم كثيرا ما أحجموا عن ذكر بعض التدقيقات المتعلقة بالشخص المترجم له، كإيراد السنوات بدقة، اعتقادا منهم بعدم جدواها، لهذا كله لا عجب أن وجدنا أن الآراء اختلفت حتى في تحديد تاريخ وفاة شيخ الطريقة العيساوية[76] ، ويبقى المصدر الوحيد الذي تطرق لهذه المسألة ، هو عبد الرحمان الفاسي في ابتهاجه حيث يقول :" إن الشيخ الإمام القطب سيدي محمد بن عيسى توفي سنة 933هـ/ 1530م "[77] ، وعنه أخذت باقي المصادر[78] ، وبعض العيساويين المتأخرين[79] ، وقد دفن بروضة زاويته خارج باب السيبة، بالقرب من ضريح شيخه أحمد الحارثي، بعد أن وطد دعائم زاويته، وحدد إطارها النظري والعملي، والذي ستتحرك الزاوية في دائرته وستشكل أساس اشتغال وممارسات أتباعه فيما بعد ، على عكس ما نستشف من خلال قراءتنا للمصادر التاريخية بأن الزاوية على عهد مؤسسها، قد حققت مبتغاها ومرادها النهائي، بل على العكس من ذلك، وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية نظر تنظيمية لا يمكن إلا أن نؤكد أن فعل التأسيس ما هو إلا حلقة أولى في سيرورة البناء التنظيمي لأية زاوية كيفما كان نهجها الصوفي .
وقصارى القول , أن الشيخ محمد بن عيسى ومن خلال إطاره ذاك , سيؤسس لإرث صوفي غرف منه اللاحقون من بعده، وأسهم في احتلال مكانة مرموقة بين طوائف القرن العاشر الهجري . هكذا وبعد رحيل شيخ الطريقة سيشهد مقر الزاوية تحولات معمارية كثيرة أضفت عليه قيمة وهيبة انضافت إلى ما خلفه مؤسسها من قواعد لنهج صوفي متجدد وفي هذا السياق سيعمد السلطان محمد بن عبد الله إلى إعادة بناء ضريحه بما يليق به، من حيث إدخال الزخرفة، والنقوش داخل الضريح، وإضافة مرافق جديدة تتلاءم مع المستوى التنظيمي الذي وصلت إليه الزاوية إبان فترة محمد الثالث من حيث ازدياد عدد أتباعها وقدرتها على التأثير في المجتمع .
وقد تمت عملية التجديد[80] أو إعادة البناء ، بالاعتماد على أنقاض "الدار الكبرى"، والتي كان قد بناها السلطان المولى إسماعيل بجوار ضريح الشيخ عبد الرحمان المجدوب، وهي عبارة عن أخشاب وزليج ومواد بناء أخرى ، وكان ذلك سنة 1190هـ/1787م[81] ، حيث أشرف القائد ابن واعزيز على عملية البناء إذ كان مسؤولا على توفير الاعتمادات المالية والبشرية اللازمة، وأي زائر للقبة الكاملية يقف على بعض الأبيات الشعرية، الراجح أنها من نظم أحد العيساويين تؤرخ لهذه الحدث التاريخي في عمر الزاوية .

وقبل ذلك وخلال العهد الإسماعيلي جددت روضتي محمد بن عيسى، وشيخه الحارثي، ومريده أبو الرواين.

- المكانة الصوفية للزاوية :

يعتبر الشيخ محمد بن عيسى الشخصيات الصوفية التي استطاعت إلى حد كبير التوفيق في استثمار مؤهلاتها الفكرية والطرقية، التي أكتسبها خلال ممارسته الصوفية بزاويته، وأصبح على إثرها محط أنظار المغاربة قاطبة ، إن على المستوى المحلي بمكناس ، أو على الصعيد الوطني، وبفعل ذلك التأثير والوهج كان الناس يتقاطرون إلى مقر الزاوية معلنين استعدادهم التام للانخراط في صفوف الطائفة العيساوية ، وقد عُرف عن الشيخ المؤسس، القدرة على التواصل مع مريديه مهما كانت مستوياتهم المعرفية وقدراتهم الاستيعابية لكل ما يصدر عن الشيخ، وهذه القيمة أكسبته سلطة إقناعية وظفها في جعل أتباعه يصغون إليه بخشوع ، ويواظبون على حضور مجالسه.

إن تضافر هذه المقدرات، وحسن استثمارها أدخلت الشيخ في طور ولاية حقيقية، علما أن الولاية توفر لصاحبها : التدبير والقدرة والفعل [82] .

وبالنظر لهذه الإمكانات ارتقى الشيخ الكامل أعلى مراتب التصوف ,ونال أعلى درجاتها، القطبانية[83] ، وفي هذا الإطار سجلت كتب التراجم شهادات عدة لشيوخ الولاية والتصوف يعترفون فيهاله بمكانته في النسيج الصوفي، كشهادة خطيب مكناسة الشيخ البصري، المذكور سابقا الواردة في " ابتهاج القلوب " وشهادة الشيخ عبد السلام الأسمر الذي قال في وصيته: "إخواني أفضل مرابطي الغرب : سيدي محمد بـــن عيسى ، وسيدي أبي يعزى "[84] .

وكان الشيخ سيدي سعيد بن أبي بكر المشنرائي قد حضر جنازته ، وصرح على إثرها: " أنه مات حتى تقطب "[85] كما خلص صاحب "الدوحة" أنـه :" أحد المشايخ الذين يقتدون بهم "[86] .

وعند مريديه، وخاصة أبي الحجاج بن أبي المهدي :" سيدي ابن عيسى هو الأكسير الذي لا نظير له، كما كان كثير الأتباع" .

وعموما فقد كان السلوك الملتزم لشيخ الطريقة العيساوية سببا مباشرا ,بأن يُنعت في الحقل الصوفي المغربي:" بالقطب" ، حيث اشتهر بمجموعة من الألقاب داخل الأوساط الشعبية "كالشيخ الكامل"، "والهادي بنعيسى" ، وهذه الأوصاف لها مدلولها في قاموس التصوف وطريقة القوم.

والواقع أن شيخ مكناس كان بالفعل حجر الزاوية في تأسيس طائفة ، اكتسبت شهرة كبيرة بفضل حسن تنظيمه وتوجيهه لهياكلها . ومن جانب آخر أُعفي من البحث عن تنظيرات صوفية جديدة ،ذلك أن الطريقة التي استند إليها في مشروعه كانت جامعة وناسخة للعديد من الأدبيات في هذا المجال . ويبدو أن وضوح مرجعيته وسنده كان حاسما في تبوء ما كان ينتظره ، من مكانة في المشهد الصوفي ، وفي ضمان شروط طرقية لاستمرار زاويته .

صحيح أن خلفائه قاموا بدور بارز في هذا المضمار , لكن المجهود الطرقي والتنظيمي الذي بُذل في بداية تأسيس هذه التجربة الصوفية كان ذا أهمية كبيرة في مساعدة الزاوية العيساوية بعد وفاة شيخها على استكمال مهامها التربوية والسلوكية .

مجال نفوذ الزاوية :

داخل المغرب :

اعتبر عيساوة أن مد إشعاع طريقتهم خارج موطنها الأصلي ، جريا على عادة جميع الزوايا مهمة محورية في " برنامجهم " وقد سعوا إلى تنفيذ ذلك عبر رحلات شيوخهم ، وتنقلهم من منطقة إلى أخرى، مستفيدين من الظرفية العامة للبلاد ، وما أتاحته من إمكانيات جمة لرواد الحركة الطرقية ، في

الانتشار وتثبيت النفوذ .
وحتى وان كان الانتشار العيساوي خارج مكناس ، غير محكوم بخطة محكمة ، ووفق مراحل مضبوطة، فما تُؤكد عليه المعلومات المتواترة عن أصحاب الشأن ، فقد تأسست مهمتهم على تحقيق اكبر استفادة ممكنة من مزايا كل مجال وطئوه ، إن على المستوى المادي المحض ،أو على المستوى التنظيمي .
وعلى العموم ، فإن الوجود العيساوي لم يكن مقتصرا على مكناس، ومحيطها الجغرافي ، ليس بالمعنى الدقيق للكلمة ، من قبائل ومدن ، بل امتد خارج البلاد ليصل إلى طرابلس الغرب ، وهي ابعد نقطة وصلها إشعاع الطريقة العيساوية . ولكن مع ذلك لا يوجد في مختلف الإشارات المصدرية و الإفادات التي بها هاته الدراسة أو تلك ، ما يسمح باستنتاج ما إذا كان ذلك الإشعاع منسجما من حيث التمثيلية والوزن ، أو ما إذا كان مجرد تلقي شخص ما للورد العيساوي في منطقة ما دليلا على وجود عيساوي فيها .
وقد تشكل هذا المجال من مكناس وأحوازها مهد الزاوية الأم بامتياز إذا ما قورنت بباقي المدن، ففيها انتشر أتباع الشيخ الكامل بكثافة، ولا عجب في ذلك فالمدينة كما نعلم تحتضن ضريح الشيخ المؤسس ناهيك عن ضمها لرفات العديد من خواص أصحابه، وخلفائه من بعده، ولم يستثن من هذا الأمر حتى المناطق المحيطة بالمدينة ، كروان وغيرها التي احتضنت العديد من خواص أصحاب الشيخ وتحولت إلى مزارات مقدسة في مناسبات خاصة يشد إليها الرحال ، و فاس [87] ، التي تعتبر من بين المدن المهمة التي امتد إليها نفوذ عيساوة وقد سبق وأن رأينا أن تجار هذه المدينة كثيرا ما كانوا يترددون على الشيخ المؤسس في مقر زاويته طلبا لبركته وبحثا عن الحماية لقوافلهم التجارية ، و منطقة الغرب [88] ، التي استطاعت الزاوية أن تستقطب إليها أعداد وافرة من الناس سواء المقيمين بالعدوتين أو ممن ينتسبون إلى القبائل المحيطة بها، وهي على العموم عربية الأصل، وبالإضافة إلى إحيائهم بشكل منتظم للطقوس العيساوية خاصة الموسم الذي ينظم ثلاثة أشهر قبل عيد المولد بمشاركة طوائف المدينتين ، بل هذا ناهيك عن مشاركة باقي الطوائف في موسم سيدي بنعاشر بسلا .
كما أن المنطقة الشمالية [89] ، اعتبرت من بين النقاط القصوى التي وصل إليها النفوذ الروحي : طنجة، تطوان، العرائش ، أصيلا ...، لكن مع تباين في طبيعة الحضور في كل منطقة على حدة خاصة على مستوى عدد الزوايا ، و منطقة الشياظمة ، فبعدما كانت أنشطتهم تأخذ طابعا فرديا أصبحت منتظمة في مقر الزاوية التي حصلوا عليها في العقد الثالث من القرن الثاني عشر الهجري (1132هـ/1719م) ، وهي عبارة عن دار " لأحد المحبين " المكي بن حموش حبسها لفائدة أتباع الشيخ الكامل ، وتقع فوق جامع "أفنان " بنفس المدينة [90] ، و الشاوية و باديتها [91] : أولاد " احريز "، " لمزاب" ، " أولاد سعيد"، "المزامزة" "المذاكرة"، " أولاد علي "......

خارج المغرب :

انتقل نفوذ الزاوية إلى مجال محاذ للمغرب ونقصد به الجزائر، التي اشتهر بها أمر عيساوة على يد محمد سيدي عيسى أحد أحفاد الشيخ الكامل إبان النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (975هـ) [92] ، إذ قدم هذا الشيخ من المغرب واستقر به المقام بمنطقة " أوزارة " قرب الجزائر العاصمة حاليا وأسس زاوية له بعين المكان [93]، حيث أفضى سياق تتبع الانتشار العيساوي إلى وجود تجمعات عيساوية كبرى نذكر منها [94]:

أ - مدينة وهران ويتشكل مريدوها من أناس في غالبيتهم ذوو مستويات مادية محدودة، ولهذا يجدون في الممارسة الصوفية العيساوية نوعا من الارتياح النفسي وتعويضا لهم عن وضعهم المادي المحجوز؛

ب - مدينة " قسطنطينة " تضم بعض الزوايا، على رأسها مجموعة من المقدمين بدورهم يديرون شؤون قاعدة مهمة من الأتباع ، أما مقرهم الرئيسي فيتواجد بمنطقة "بونة " .

كما تسربت الطريقة العيساوية إلى تونس ، وحققت انتشارا واسعا بالبلاد التونسية أكثر من أي طريقة صوفية أخرى، حيث استمدت جاذبيتها الشعبية من الأخبار المتواترة عن شيخها المؤسس ، ولذا فقد استقطبت أعدادا كبيرة من الأتباع ، ومن أبرز أعلامها بتونس نجد الشيخ علي بن قاسم بن محمد الشهير بالشريف [95] .

ومن المناطق التي انتشر فيها النفوذ العيساوي ، نذكر [96] :

- الكاف ، سوسة، قفصة، تحتضن أكبر عدد من المريدين وبها تقام الأنشطة الصوفية بشكل منتظم كالحضرة وغيرها؛
- بنزرت ، صفاقس ، قابس؛
- تونس العاصمة، القيروان ، شالة، جربة، توزر؛

وعلى الرغم من بعد ليبيا جغرافيا عن موطن الزاوية الأم بمكناس ، فقد امتد إليها النفوذ العيساوي ، شأنها في ذلك شأن باقي الدول التي تقاسم المغرب المجال المغاربي. لم تبق بمنأى عن التأثير العيساوي بعد وفاة شيخها المؤسس، ولا على النفوذ الذي عملوا على تكريسه خارج الحدود المغربية.

وكانت طرابلس أولى المدن الليبية التي امتد إليها نفوذ عيساوة إبان القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر الميلادي ، على يد أحد أعلام مدينة فاس محمد بانون الحسني الشريف، وبعد هذا التاريخ بقليل بنيت الزاوية الصغيرة بالقرب منها، حيث كانت المنطلق لامتدادهم صوب باقي المدن والقرى، بما فيها التجمعات السكنية الصغرى [97] ،أما باقي المناطق فشملت :

- طرابلس الغرب ، سوق الجمعة، جانزور؛
- مسراته، يرجع فضل نشر الطريقة العيساوية للشرفاء أولاد أبي السباع؛
- الزواية الغربية، ومدينة سور أمان (سرمان)؛
- بنغازي وضواحيها ، تتواجد بها ثلاثة زوايا، وحسب دراسة "كوبولاني"، كانت هذه الزاوية عامرة ونشيطة، ويشرف على تسييرها مجموعة من المقدمين [98] ؛
- مدينة درنة، حيث بنيت أول زاوية عيساوية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي (1685م) على يد أحد المتصوفة وهو الشيخ بوطلاق [99] ؛
- طبرق، خليج سرت، أجدابية؛
- فزان، مدينة سبها، وادي الشاطئ، وادي الحياة؛
- منطقة الجنوب، جالوا، وأجلا، الكفرة، الجغبوب.

من خلال المجالات التي امتد إليها النفوذ الروحي العيساوي ، يلاحظ أن هذه التجربة الصوفية كانت لها ميكانيزماتها الخاصة بها، والتي أهلتها لنشر نهجها الصوفي، وبالتالي بسط نفوذها الروحي العام، وهذا يعني أنها قامت بالأدوار المنوطة بها إزاء الناس، إذ كانت في أغلب الأوقات حاضرة إبان الكوارث محاولة التدخل للتخفيف من وقعها على الفئات المتدنية في المجتمع.

الحضور العيساوي في المجتمع المغربي :

لقد دفعت الأزمات والتفسيرات الغيبية التي أعطيت لها ، إلى التعلق بكل من توسم فيه الناس الصلاح، ويبدو انهم وجدوا فيهم الملاذ الآمن ، والحل لكل المشاكل المستعصية ، حيث جعلوهم وسطاء موثوقا بهم وحكاما لا ترد أحكامهم وكان معروفا كذلك أن الناس كانوا يبحثون عن الحماية المادية والمعنوية ،

من سطوة الطبيعة وتسلط الإنسان , حتى ولو كانت الحلول المقدمة ، مجرد حلول تطمينية نفسية .
وفرت هذه الوضعية للزوايا عامة ولزاوية الشيخ الكامل خاصة ، الظروف الملائمة لتعزيز الحضور في المجتمع من خلال التقليل من وقع تلك الأزمات المركبة والحد من خطورتها على كافة أوساط المجتمع ، ذلك أن مصداقية أية زاوية كانت تقاس بحجم الخدمات التي تقدمها لوسطها، وقد تتسع شهرتها ويتكاثر عدد أتباعها ، إذا ما ضاعفت من مجهوداتها في هذا الباب ، خاصة إذا كانت الفترة التي تُقدم فيها مثل هذه الخدمات مساعدة على ذلك .
فالقرن 10ه /16 م الذي برزت فيه الزاوية العيساوية ، كان قرنا غير مستقر سياسيا ، حيث الصراع على السلطة كان على أشده، و الأوضاع الاجتماعية والذهنية كانت بالغة التعقيد نتيجة الأزمات العديدة للعصر، علاوة على ما خلفته من آ ثار اقتصادية وديموغرافية واسعة النطاق .
ويبدو أن هذه المظاهر، كانت دافعا لأن يُعزز عيساوة من وجودهم وان يرسخوا مركزهم ، إلى جانب باقي مكونات النسيج الصوفي ، باعتماد آليات قد تبدو منذ الوهلة الأولى بسيطة ، من إطعام وإيواء واستشفاء ... ، لكنها كانت ذات دلالات كبرى بالنسبة لساكنة هي أحوج إلى الحماية و الأمن والطمأنينة.
وعلى العموم ، يمكن إجمال الخدمات المقدمة من طرف الزاوية العيساوية للناس في : الإطعام و الحماية و الاستشفاء و البركة .. وغيرها من الخدمات التي اشتهرت بها عموم الزوايا والطرق الصوفية ، دون أن ننسى مساهمتها الروحية والدينية في المجتمع ، وبالخصوص دور شيخ الطريقة في تلبية الاحتياجات الفكرية والروحية لمريديه ولأتباعه في مختلف أماكن تواجدهم ، ولا زال بالمسجد الأعظم بمكناس ما يشير إلى تصدرالشيخ محمد بن عيسى للمجالس العلمية بعد عودته من رحلته العلمية التي قادتها غلى جامع القرويين بفاس ، وهي عبارة عن رخامة مثبتة بإحدى سواري المسجد ، هذه الدروس شهدت إقبالا كبيرا من طرف ساكنة مكناس ، بالنظر لتواضع الشيخ، وتسامحه وتسويته بين القريب والبعيد وحثه على التضامن والتآخي وحرصه على محاسبته النفس ...، وهي أمور تتردد كثيرا في " الثقافة" الصوفية العيساوية، كما سن الشيخ المؤسس لأتباعه عدة وظائف وأوراد وأذكار و" أحزاب" ظلوا يرددونها إلى وقتنا الحاضر.
وتحصلت لدى الزاوية من جراء ذلك على عدة مداخيل شكلت موردا هاما للزاوية العيساوية، ففي زاوية تعتمد بشكل أساسي على ما يدره عليها أتباعها ، كان ضروريا أن تحتل الموارد الخارجية حيزا كبيرا ضمن انشغالات أرباب الزاوية العيساوية، فأي نقص فيها – الموارد – كان يؤدي إلى خلل في تلبية حاجات محيطها.
وصفوة القول ، أن المنطق الذي تحكم في الزاوية العيساوية، وشيخها أن تكون على موعد مع مختلف الإكراهات التي وقع تحت طائلتها الإنسان المغربي من مجاعات وطواعين وأمراض مستعصية ... كما كان الشأن من ذي قبل بالنسبة لباقي مكونات الخريطة الدينية المغربية، لذا فإن أهم الأولويات التي أفضى إليها هذا التوجه بالنسبة لهذه التجربة الصوفية أن يعمل أصحابها على ترسيخها في المجال المكناسي أولا وفي المجال المغربي ثانيا، وأن يعملوا على إزاحة باقي مشايخ الزوايا الآخرين ، وخاصة منها تلك التي تشترك معهما إن في السند أو المشروعية الصوفية، أو تشابهها في الأدوار والممارسات.
وما دام هنالك مستلزمات يفرضها كل اختيار من هذا القبيل، فالنتيجة أن الشيخ محمد بن عيسى، وكان قد بلغ آنئذ من الشهرة ما بلغ، قد سن له ولخلفائه عدة آليات اجتماعية للتواصل مع مريديه.
و الشيء المؤكد هو أنه كان للتجربة الصوفية في مغرب القرن 10هـ/16م، أبلغ الأثر في صياغة تجربة صوفية تعتمد التربية السلوكية، وتمثل هذا السلوك في الممارسة المتجلية في قيام محمد بن عيسى /

الشيخ الكامل بوظيفة الإرشاد الديني والإجابة على احتياجات مريديه ذات الصبغة الفكرية ، ومحاربة البدع والشوائب التي لا علاقة لها بالنهج السني الذي ارتضاه لطريقته.

كما نسجل استجابة وارتباط مهام الزاوية العيساوية بالوسط الذي تواجدت فيه، ومنه اكتسبت نفوذها ورمزيتها، وأضحى شيوخها أشخاص مرغوب فيهم، لهم نفوذ معنوي مهم/ أصحاب بركة، وهذه العناصر تؤول باختصار شديد إلى القول بالمكانة المرموقة التي كانت لهذه الزاوية، حيث اعتبرت مركزا صوفيا مهما، مقصودا من مختلف جهات المغرب.

علاقة الزاوية العيساوية بالسلطة :

إنبنت علاقة الزاوية العيساوية بالمخزن ومنذ القرن 10ه/16م ، على احترام جميع سياساته الموجهة للزوايا وللفقهاء وأصحاب الشرف ، وغيرهم من أصحاب الحظوة في المجتمع ، ولم تنبري يوما لمعارضة قراراته ، أي أنها اختارت طريق المهادنة والسلم والمرونة في تعاملها مع الحاكمين ، في حدود ضمان مصالحها المادية ، و بما يكفل لها الحق في ممارسة طقوسها وشعائرها ، بدون قيود تُذكر، ومع ذلك فان هذه الزاوية عانت في العديد من الفترات من محن وتضييق ، خاصة في فترة السلطان المولى سليمان الذي سن مجموعة من الإجراءات التضييقية على الزوايا في وجودها المادي ، اعتبارا لتأثره بالفكر الوهابي الأتي من الحجاز في مطلع القرن 19/13 م [100] ، وفي هذا الإطار اتجه هذا السلطان إلى إعمال مجموعة من الإجراءات [101] ، أبرزها على الإطلاق خطبته الشهيرة ضد ما أسماه بالبدع الضالة المخالفة للقرآن والسنة .

وفي الواقع ، فإن قرار إبطال المواسم الصوفية والتضييق على الزوايا والطرق في ممارساتها، لم يكن بالشيء الهين على الزاوية العيساوية، فهذه الأنشطة تشكل عماد نشاطها، وأهم فرصة للتواصل مع مريديها، لذلك كان للقرار المذكور انعكاسات سلبية عليها وعلى فروعها .

فالموسم كان مناسبة للتداول في شؤون الطريقة، وفيه يتم استخلاص " الزرايات" و"الهدايا"، و"الفتوحات" ، وهو علاوة على دلالته الاقتصادية الكبرى، يحمل معاني روحية تتمثل في خلق شعور جماعي بين المريدين ، بالتماسك داخل جسم الطائفة، الواحد من خلال إشعارهم بالانتماء إلى جد واحد، الشيخ محمد بن عيسى، ويكون مناسبة للفت انتباه المجتمع إلى هذه الزاوية وقوتها بالإضافة إلى أنها تستغل مثل هذه المناسبات لاستقطاب مزيد من الأتباع وبالتالي مد الإشعاع الصوفي العيساوي إلى مناطق لم يصلها بعد.

هكذا بناء على هذه المعطيات ، نجد أن المتضرر الأكبر هو الأساس الاقتصادي للزاوية، القائم على الموارد المذكورة ، نظرا للاعتماد الكبير عليها في تسهيل مأمورية أنشطة الزاوية وكذا توفير كل ضروريات الطائفة .

لا شك في أن هذا الواقع انعكس على الأحوال الداخلية للطائفة ، وعلى علاقاتهم بأفراد المجتمع ، وهو ما دفعهم إلى الاستعانة ببعض الشخصيات الصوفية الشهيرة بمكناس ، وهو سيدي قدور العلمي للدفاع عنهم وعن شيخهم ، لما لهذه الشخصية من تقدير واحترام في نفوس المكناسيين على الخصوص [102] .

وباستثناء هذه اللحظة الصدامية مع السلطة في عهد السلطان المولى سليمان ، تسجل المصادر التاريخية والكتابات المنقبية العيساوية ، إقدام السلطان محمد بن عبدالله على إعادة تجديد ضريح الشيخ الكامل، باستعمال أنقاض إحدى تشييدات السلطان المولى إسماعيل – الدار الكبرى – الكائنة بجوار ضريح الشيخ عبد الرحمان المجدوب بمكناس ,سنة 1190هـ/1776م، بل انه اضفى على هذه العملية طابعا رسميا بتكليف أحد قواده ، محمد ابن واعزيز للإشراف المباشر على إعادة البناء تلك .

كما نجد الظهير الذي وجهه السلطان محمد بن عبد الله إلى كافة " أولاد الشيخ الكامل"[103] ، وهو من الظهائر العامة والخاصة في نفس الوقت، عامة وهذا يعني أنه لم يتجاوز إسدال أردية التوقير والاحترام على حفدة شيخ الطريقة العيساوية ، وحمايتهم من أي أذى قد يلحقهم ، وخاص لأنه ينص على نوع الامتيازات التي سيستفيدون منها من جراء حصولهم عليه، وتتمثل في رفع كل الوظائف مهما كانت طبيعتها [104] ، والإعفاء من واجبات الزكاة والأعشار على أساس أن يقوموا بأنفسهم بتوزيعها على ضعفائهم وفقرائهم، رعيا لنسبهم الطاهر، وأهم ما في الظهير اعتراف السلطان بالنسب الشريف لعيساوة .

الشيء المؤكد أنه الزاوية العيساوية وشيوخها حافظت من جراء علاقتها المرنة مع السلطة ،على سيرورة منتظمة للطائفة، وضمنت شروط استمرارها في أداء أدوارها المعتادة، ومهما يكن من شيء فالثابت أنها وفرت لمريديها إمكانية ممارسة قواعد وأسس التصوف كما أقره الشيخ محمد بن عيسى في بداية أمره.

فهل كانت الزاوية العيساوية عاجزة عن إنتاج موقف سياسي من قضايا وأحداث العصر، أم أن أهدافها ومطامحها المادية حتمت عليها، التكيف مع الخيارات السياسية الصادرة عن كل سلطان عاصرته تثبيتا لوجودها، وحفاظا على شخصيتها الروحية التي ارتضتها لنفسها وسط النسيج الصوفي المغربي منذ بداية أمرها؟

الحاصل أن السلطة كانت محتاجة إلى هذه الزاوية لضمان الولاء الدائم لفئة كبيرة من الناس، ذلك أن عيساوة كانوا يمارسون تأثيرا روحيا مهما على المناطق التي يتواجدون فيها. ولا نغالي إذا قلنا إن الزاوية العيساوية بمسالمتها وحيادها إزاء مختلف الصراعات السياسة التي كانت تنشب من حين لآخر (باستثناء فترة الصراع الوطاسي / السعدي التي سجلت حضورا لافتا لمشايخ عيساوة) ، ساهمت في ضمان تحكم ناجع في المجتمع، وبالمثل أدركت عمقا اجتماعيا كان كفيلا بضمان استمراريتها في الزمن.

فهل كان لذلك علاقة باختيار سياسي واع بذاته ، أو كان مطمحا معينا غير معلن عنه مخافة إجهاضه في المهد؟

هوامش وإحالات:

[(1)] – Brunel (René) , Paris , librairie orientaliste , paul Genthner , 1926

[(2)] - Doutté (Edmond) , imp . Martin frères . 1900 .

[(3)] – Rinn (louis) , Alger , 1884 .

[(4)] – Déppond et coppolni et xavier , Alger , 1897 .

[5] – نذكر منها : مخطوطة في سيرة الشيخ محمد بن عيسى ، للغالي العمرتي ، 1321ه في ملكية المرحوم محمد المنوني ، وزودنا بها الاستاذ محمد اللحية (ك . أ . ع . إ . سايس) مشكورا . و رسالة الاسماعيلي ، في حوزة أحد حفدة الشيخ الكامل ، السيد الهادي المحجوب ، وقد أشرنا اليها في الاحالات ب " رسالة الاسماعيلي " . المهراز . فاس ، 1988 ، (مرقون) .

[6]– أحمد الوارث : الاولياء والمتصوفة في القرنين 17 و18 . د . د .ك . أ . ع . إ عين الشق ، الدار البيضاء ، 1998

(مرقونة) .

[7] – عبد الله نجمي : " من تاريخ التصوف في القرن 10ه :الملا منية " ، مجلة تاريخ المغرب . فبراير ،1981م

[8]– عبد الواحد الهاروني علوي : الاضرحة والمزارات في مكناس ، ك . أ . ع . إ بمكناس . (مرقونة) .

[9] – ترجم لشيخ الزاوية العيساوية أكثر من مصدر:

- الشفشاوني ابن عسكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق : محمد حجي ، 1976، الطبعة الثانية ، م . س ، صص : 75-76، و الفاسي محمد المهدي: ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع ، تحقيق : عبد الحي العمراوي : 1989 ،

صص: 62-64. الغزال أحمد بن المهدي : النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل سيدي محمد بن عيسى ، الطبعة الأولى، مطبعة الصدق الخيرية، القاهرة 1348هـ. و عبد الرحمان الفاسي: ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجدوب (الابتهاج) ، مخ ، خ ع بالرباط ، رقم ك 326 صص ، 93 – 96 . و المنالي الزبادي :سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية ، م ، خ ، ع ، الرباط رقم ك 247، صص ، 200- 209 . و محمد بن جعفر الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحـــاء بفاس (السلوة) ، ط.ح ، فاس 1316ه ، ج2 ، ص: 186.و أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الاستقصا)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري وخالد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1956م ، ج6، ص: 150 . و العباس بن إبراهيم التعارجي السملالي : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام (الإعلام) ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط 1974م – 1983م ، ج5 ، صص : 126-128. و عبد الرحمان بن زيدان : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (إتحاف) ، مطابع إيديال ، ط2، الدار البيضاء , 1990، ج 4، صص : 11-21. و الغالي العمراني : رسالة مخطوطة في مناقب الشيخ الكامل،مخ خاص، 1321ه. و أحمد الخليفتي: الأنيس الجليل في طريقة ومناقب سيدي محمد بنعيسى القطب الكامل (الأنيس) ، طنجة ، 1990. وأحمد القطعاني : الشيخ الكامل محمد بن عيسى (الشيخ الكامل) ،ليبيا ،1992.

10 –الدوحة، م . س ، ص.75

11- النور الشامل ، ص 4 .

12- ن م ، ص 5.

13 –الشيخ الكامل ، م . س ، ص , 26، وعن قبيلة بني أحسن ومختلف فرقها وبطونها ، ينظر : مصطفى بوشعراء: علاقة المخزن بأحواز سلا قبيلة بني أحسن 1860م/1912 ، م، ك، آ ،ع ، إ الرباط ، 1996..

14 –الشيخ الكامل، م . س ، ص ، 27 .

15 – عن أسرة السباعيين ،يمكن الرجوع إلى الدراسات الآتية :

- عبد المعطي الحسني السباعي: الدفاع وقطع النزاع في نسب الشرفاء أبناء أبي السباع، المطبعة الاقتصادية الرباط 1940م.
- كفناني مولاي الحسن : قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر ، د. د. ع، التاريخ مرقونة في جزأين كلية الآداب الرباط السنة 1987-1988 .
- صالح بكار السباعي: الأنس والإمتاع في أعلام الأشراف أولاد أبي السباع، مطبعة دار وليلي للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، مراكش.

16 – كنفاني مولاي الحسن، م. س، ص 242.

17 – ص. بكار السباعي ، م. س، صص , 134-.135

18 – إتحاف، م. س، ج 4، ص 13.

19 ـ أورد الباحث م . بوشعراء لائحة لهؤلاء الصلحاء بمنطقة بني أحسن , م. س، صص ,29 -30 .

20 ـ عبد الهادي التازي : جامع القرويين ، المسجد والجامعة بمدينة فاس، المجلد الثاني ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت
الطبعة الأولى سنة .1973

21 –الشيخ الكامل، م، س، ص 37 .

[22] ـ جامع القرويين ، م . س، ص 374.
[23] ـ أحمد بن القاضي المكناسي : درة الحجال في أسماء الرجال (درة) :3 أجزاء ، تحقيق محمد الاحمدي، دار التراث،
القاهرة , 1971 . ج1 , ص , 91 .
[24] ـ النور الشامل، م .س ، ص 5.
[25] ـ الأنيس الجليل ، م.س ، ص 88.
[26] ـ أحمد بن القاضي المكناسي : حذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس (جذوة) ، تحقيق عبد الوهاب
بن منصور ، دار المنصور ،1973 و 1974 ، ج2 ، ص ، 64 .
[27] ـ الشيخ الكامل، م .س ، ص 38 .
[28] ـ الشيخ الكامل، م .س ، ص 38 .
[29] ــ أوردها عبد اللطيف الشاذلي: التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني،
مطابع سلا، 1989م. م .س ، ص 135.
[30] ــالدوحة ، م .س ، ص 76. والممتع ، م .س ، ص 58 .
[31] ــ الخدمة : مصطلح صوفي يعني ملازمة المريد لشيخه ملازمة تامة، ووقف نفسه وحاله وأهله لخدمته، ينظر : الممتع ،
م .س ، ص 33.
[32] ــ الإذن : يعني ألا يأتي المريد من أمر دينه ودنياه شيئا إلا بعد إذن شيخه ، وقد أوردت عدة مصادر خبر اتصال الشيخ
الكامل بشيوخ عصره : الدوحة ، م .س ، ص ، 75. والممتع ، م .س ، ص ، 63. و الابتهاج ، م .س ، ص ،
93.والنور الشامل، م .س ، ص ، 6. والسلوة ، م .س ، ج 1, ص 186. - والإعلام ، م .س ، ص ، 126
[33] ــ ترجم له كل من :
ـ الممتع ، م .س ، ص ، 38. و الدوحة م .س ، ص: 74 .
[34] ـ الدوحة , م .س ، ص , 74 .
[35] ـ الشيخ الكامل ، م س، ص ، 45 .
[36] ـ الدوحة ، م . س ، 74 .
[37] ـ النور الشامل ، م س ، ص 6 . و الشيخ الكامل، م.س، ص 47 .
[38] ـ الفتح في السياق الصوفي لا يعني سوى انتقال قدرة ما من شخص إلى آخر.
[39] ــ ترجم للشيخ التباع كل من :
- الدوحة ، م .س ، ص 136 . - والممتع ، م .س ، صص 35-36. والسلوة ، م .س ، ج 2، صص 211-212. والإعلام م .س ، ج 8, ص 413.
[40] ــالنور الشامل ، م .س ، ص 7 .
[41] ــالنور الشامل، م .س ، ص 7 .
[42] ــ ن م ، ص 8. و الاستقصا : م .س ، ج 4/ ص 164 .
[43] ــالأنيس الجليل ، م.س، ص 113.
[44] ــ ترجم للشيخ السهيلي كل من :
ـ الممتع، م .س ، ص 135. والإعلام، م .س ، ج 5 , صص 126-127 .
[45] ـ الممتع ، م .س ، ص 135 .
[46] ــ خندق الزيتون : هذه التسمية لم يعد لها وجود، إنما لا زالت أطلال ضريح الشيخ السهيلي قائمة في المنطقة (واد اللبن) بنواحي مدينة تاونات، كما ورد ذكرها في كتب التراجم .

[47] ــالنور الشامل ، م .س ، صص 9 –10 .
[48] ــ هو أبو محمد عبد الله بن عجال الغزواني، أحد أعمدة الطريقة الجزولية من عرب غزوان بنواحي فاس بين صفرو وسيدي حرازم، تعلم بفاس، وصحب الشيخ التباع، كان قد اعتقله السلطان الوطاسي أبو عبد الله محمد بن الشيخ، وأطلق سراحه فيما بعد، كانت زاويته داخل باب أبي الفتوح بفاس ، استقر به المقام بمراكش إلى أن توفي سنة 935هـ/ 1530م، ودفن بزاويته بحومة القصور داخل مراكش.
- ترجم له : الممتع ، م .س ، ص 38. والدوحة م .س ، ص : 96 . والأنيس الجليل ، م.س، ص ، 115 .
[49] ــالأنيس الجليل ، م.س، ص , 115 .
[50] ــ أهمية الشرف لم تقتصر على الصلحاء وشيوخ الزوايا بل اعتمد على هذا العنصر السلاطين المغاربة في بعض الفترات التاريخية خاصة القرن 8هـ/ 14م، التي تزامنت مع حكم الدولة المرينية ومعلوم السياسة اعتمدت من طرف هؤلاء اتجاه المتصوفة وقوامها استمالة العديد منهم منذ بداية دولتهم وذلك بحملهم على قبول تأييد حكمهم الذي لم يكن يستند لأية مشروعية مذهبية ولم يكن لها أي سند واضح في مقابل منح الامتيازات المختلفة من جرايات وظهائر وعقارات ...
وبالنظر لهذا المعطى غدا هذا العنصر مجالا لانبثاق مشروع ما خاصة إذا كان دينيا، ولكن وجب التنبيه أنه إذا كان قد اكتسب أصحابه وضعا اجتماعيا مهما فقد أضحى عنصر إزعاج بالنسبة للمخزن حيث سيتجه إلى محاولة تقليم أظافر كل جماعة طامحة إلى احتكار الشأن الديني.
للمزيد من التفاصيل عن السياسة المرينية إزاء المتصوفة يمكن العودة إلى الدراسة القيمة للدكتور:
- Kably (Med) : **Société , pouvoir, et religion au Maroc à la fin du Moyen âge (XV- XV)**. Maison neuve Larouse, Paris , 1986.
[51] ــ الهبطي هو أبو محمد عبد الله الهبطي، ذو الأصل الصنهاجي، أخذ عن شيوخ كثير منهم أبو محمد عبد القسطلي الأندلسي، أبو العباس أحمد الزقاق، كما أخذ التصوف على أيد بي محمد عبد الله الغزواني، ترجم له :
- الدوحة ، م . س , صص 7-14. والجذوة ، م . س , ج 2 ، ص 440.و الاستقصا ، م . س , ج 5 , ص 87 . و عبد الله كنون : **النبوغ المغربي في الأدب العربي** ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية، 1961، ج 1، صص 251 - 252. وعبد القادر العافية : " **الشيخ الداعية عبد الله الهبطي** " مجلة دعوة الحق، ع 4، سنة .1979
[52] ــ خطيب بالمسجد الأعظم (ت 991هـ) ، دفن بداره من القرسطون إحدى حومات مكناس الشهيرة ، وقبره مزارة شهيرة
[53] ــ تطرق برونيل إلى حكاية الشيخ الكامل مع الشيخ البصري :
- Brunel (René) : op-cit p : 15 .
[54] ــ عبد الإلاه جريد: **الزاوية الكتانية**. د .د .ع / ك . آ . ع . إ بظهر المهراز , فاس , جزآن، 1996 - 1997 (مرقونة) ج 1, ص 50 .
[55] ــ محمد ابن غازي : **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** (الروض) تحقيق ، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ، ط 2 ، الرباط ، 1998 ، ص .68
[56] ــ يحظى باحترام وتقدير عند عامة المكناسيين اشتهرت زاويته في العهد الوطاسي بإطعام كل من يفد عليها خاصة الضعفاء منهم عرف عنه قربه من المخزن الوطاسي ، ويقدر عيساوة هذا الولي كثيرا لاعتقادهم أنه كان السبب في إرجاع شيخهم بعد أن طرده أحد وزراء بني وطاس، من المدينة ، ولذلك يزورونه سنويا كلما قدموا إلى مكناس لأحياء موسمهم، وقد كانت وفاته حسبما جاء في الدوحة في العشر كالسادسة، ودفن بزاويته بمكناس .
- عن هذه الشخصية ينظر :
- الدوحة، م .س , ص 77 . و الممتع، م .س، ص 107 .
[57] ــ ينتمي لحُصين بالتصغير وهي فخد من قبيلة بني أحسن من عرب معقل كثير الانقطاع إلى الله، زاهدا ، كثير التنسك، اشتهر بزيارته المتكررة لضريح الشيخ أبي يعزى ، أخذ عن الجزولي وعبد العزيز التباع، والشيخ الكامل، أما وفاته فكانت سنة 910هـ حيث دفن بروضة راس التاج خارج باب عيسى أحد أبواب مكناس، والروضة حاليا تنسب إليه. ويعتبر ضريحه من أشهر المزارات المتبرك بها بالمدينة، ترجم له :
- الدوحة، م .س ,ص 107 . والإتحاف ، م .س ، ج 5, صص 495 –496 .
[57] ــالشيخ الكامل، م.س، ص 77 .
[58] ــ **مخطوط مجهول المؤلف في حوزة أحد حفدة الشيخ الكامل بمكناس،** ونتوفر على نسخة منه في سيرة الشيخ المؤسس ورقة 5، ويتضح أن صاحبها مريد في الزاوية العيساوية بتونس :" فهذه نبذة يسيرة اقتطفتها من تقاييد قديمة ، اعتنى

بجمعها بعض تلاميذة الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى ... كما سأل عنه شيخ طريقتنا الشريفة بالممالك التونسية " ورقة رقم 4، أما صاحبه : " على يد كاتب غفر الله ولوالديه، ولأجداده ولجميع المؤمنين والمؤمنات ... " ورقة 11 .
ـ مخ ، مجهول المؤلف في سيرة الشيخ (سيرة الشيخ)، د . ت .

[59] –سيرة الشيخ ، م .س ، ورقة 5.

[60] –الممتع ، م . س ، ص 4.

[61] –سيرة الشيخ لمجهول، م . س ، ورقة 6 .

[62] –الدوحة ، م . س ,ص 76. والابتهاج ، م . س , ص 161 . و الممتع ، م . س ,ص 53 .

[63] – أحمد الوارث : "**تصوف العوام خلال القرنين 17و18 ، التيار الشرقاوي نموذجا** "، أعمال الرباطات والزوايا، م . ك. أ . ع . إ . الرباط 1997 , صص 237-255. .

[64] –الممتع ، م . س , ص , 44 . وسلوك ، م . س ,ص 200 .

[65] –الممتع ، م . س ,ص 44 .

[66] –النور الشامل، م. س، ص 3 .

[67] –إتحاف أعلام الناس، م . س ، ج 4/ ص 12 . و رسالة الإسماعيلي ص 6 .

[68] –سيرة الشيخ ، م . س الورقة 6. وإتحاف، م . س ، ج 4/ ص 12.

[69] ـ النور الشامل، م . س ,ص 49. و الشيخ الكامل، م.س، ص 127. و رسالة الإسماعلي، م . س ، ص 18.

[70] ـ سلوك الطريق الوارية ، م . س ، ص 203 .

[71] –النور الشامل ، م . س ، ص ، 49.

[72] ـ ن م .

[73] –النور الشامل ، م . س ، ص : 49 .

[74] – أ . الوارث ، م. س ، ج 1/ صص 42-43.

[75] – رسالة الإسماعيلي ، م. س ,ص 18 .

[76] – أرخ ابن عسكر وفاته في أول العشرة الرابعة ، م . س ، ص 76 ، وتبعه في ذلك صاحب الممتع م . س ، ص 63 .

[77] –الابتهاج ، م .س، ص 94 .

[78] –النور الشامل، م .س، ص 42.

[79] –الشيخ الكامل، م، س، ص 126.و الأنيس الجليل، م . س، ص 113.

[80] ـ يستنتج من هذه العملية أن القبة الكاملية كانت عادية أواخر الدولة الوطاسية وطيلة عهد السعديين ، وهذا يعني أنها لم تشهد أي تجديد معماري كيفما كان نوعه من قبل .

[81] –الإتحاف، م .س، ج 1/ ص 194 .

[82] – نقلها الباحث عبد الإله جريد في رسالته عن ابن منظور ، م . س ، ج1 ص 127 .

[83] – تعتبر **القطبانية** إحدى مقامات الصوفية، لم ينتسب إليها إلا أكابر المشايخ، وتوجد في قمة السلم الصوفي

[84] –النور الشامل، م . س ، ص 5. أما عبد السلام الأسمر، فهو شيخ صوفي ، ومؤسس الزاوية العيساوية بالقطر الليبي.

[85] –الدوحة، م . س، ص 76.

[86] –ن م

[87] –سلوك الطريق الوارية، م س، ص : 213 .

[88] – Brunel (R) , Op.cit, 49. et Mercier (A) **: Etudes , Archives Marocaines**, T, VIII, P129 .et Villes et tribus du Maroc : **Rabat et sa région** Tome I ,1918 , PP.262-261 ,215-162,214

–**الإتحاف الوجيز**: تحقيق مصطفى بوشعراء ، منشورات الخزانة الصبيحية بسلا، مطبعة المعارف الرباط، 1986م، صص 108-109.

[89] – محمد داوود : **تاريخ تطوان**، ج 7، المطبعة الملكية الرباط، 1990، ص 104 - 103 .

- Villes et Tribus du Maroc : **Tanger et sa zone** 1921, Volume 1, P 317 .

[90] – م. بن أحمد العبدي الكانوني: **آسفي وما إليه قديما وحديثا** ، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1934م. ، م س ، ص : 103 . و أ .الوارث , م . س , ص 387.

[91] - Villes et Tribus du Maroc : **Casa blanca et sa région** , 1915 , P.63 .
- Brunel (R), Op.cit, P : 49 .

[92]– Brunél (R), , Op.cit, P : 28 .

[93]– Déppont et coppolani ; Op.cit, P : 351 .

[94]- ibid p 352

[95] – أحمد القطعاني : **حراس العقيدة،** الطبعة الأولى، 1999 ، طرابلس الغرب، صص 123-126 .

[96]– Brunel (R) , Op. cit, P : 47 . et Deppont et Coppolan , Op.cit, P : 354 . et RINN (L) , Op.cit, P : 331 .

[97] –الشيخ الكامل، م. س، ص 23 .

[98]– Déppont et Coopolani , Op-cit, P : 354 .

[99]- الشيخ الكامل، م . س , ص 23 .

[100] – أ . الوارث ، م. س ، ج 2، ص 654.

[101] – من بين الإجراءات المتخذة نجد رسالة في تحريم السماع، (1221 هـ/ 1806م)، كما أقدم بعد ذلك على إزالة "النقير " الذي كان موجودا على قبر والده (الحجر المنقوش الذي يوضع فوق القبر)، محمد المنصور، " م . س ، ص 184.

[102]- الاسماعيلي ، م . س ، ص 2 .

[103] ـ الإتحاف، م . س، ج 4، ص 13.

104 – المقصود **بالوظائف ،** هي : هدايا الأعياد، الدينية الثلاثة: المولد النبوي، عيد الفطر، عيد الأضحى. وهي عادة جرى بها العمل في جميع الفترات